

القسم الثاني

في قارة افريقية

الفصل الاول

في جغرافية افريقية واهلها وهوائها

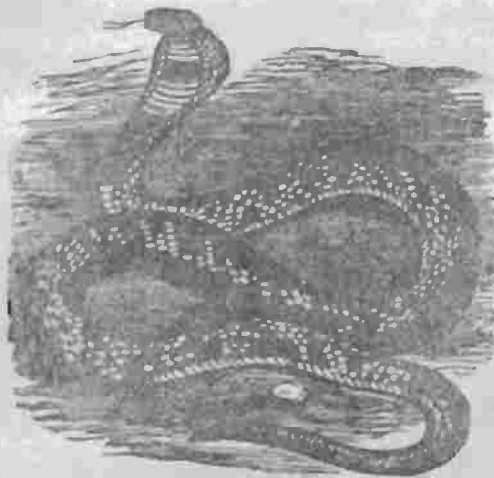
هذه القارة احد اقسام العالم الخمسة تبلغ مساحتها نحو ربع مساحة كل الارض يحدها شمالاً بحر الروم والاقبيانوس الانلاتيكي وشرقاً برزخ السويس والبحر الاحمر والاقبيانوس الهندسي وجنوباً الاقبيانوس الجنوبي وغرباً الاقبيانوس الانلاتيكي وكانت قبل فتح برزخ السويس ووصل البحر الاحمر ببحر الروم متصلة بقارة اسيا براً واما الآن فقد اصبحت جزيرة مكتنفة بالماء وهذا البرزخ اضحى خليجاً بعد ما كان قد شرع كثيرون في فتحه قبل المسيح بست مئة وعشر سنين ولم يتم هذا العمل العظيم حتى شرع فيه صاحب الحزم والهبة الخواجا فردينند دي ليسبس الفرنسي بنفقة شراكة عمومية وذلك بعناية حضرة خديوي مصر وانتهى فتحه سنة ١٨٦٩ بحضور محفل عظيم من الملوك والامراء الاوربيين وهو يعد الآن من اهم واعظم الاعمال البشرية التي جرت

في الدنيا واصبح العالم الغربي متصلاً بالعالم الشرقي على اسهل واقرب طريق
بعد تلك المسافة الشاقة والمدى الطويل

ولا يخفى ان في هذه القارة بلاداً كثيرة مجهولة الحال لا تُعرف على وجه
الحقيقة وذلك لعدم امكان وصول ارباب الاكتشافات اليها نظراً لمخاطرها .
وقد اجتهد كثيرون من السياح على معرفة اقاليمها واحوال اهلها والوقوف
على اراضيها المجهولة فقصدوها من بلاد بعيدة وتوغلوا في بطون اراضيها فمهم
من مات مريضاً ومنهم من مات قتيلاً ولذلك يُعتبر اغلب اهالي هذه القارة
اقل تمدناً من سكان سائر القارات

ولكن سنة ١٨٦٦ ارسلت الحكومة الانكليزية الدكتور لفنستون السائح
الافريقي الشهير لاجل اكتشاف باطن افريقية الى الجنوب من خط الاستواء
ولاجل الوقوف على التجارة بالعبيد . ومن ذلك الوقت لم يظهر خبر عن
السائح المذكور الى ان ذهب رجل اميركاني في طلبه اسمه ستانلي سنة ١٨٧٢
وبعد سفر طويل وجده مريضاً في اوجيبي وكان قد فرغ زاده وماله فبقي
عنده مدة من الزمان وسافرا سوياً في بحيرة تانكينا . ثم رجع ستانلي وفي
لفنستون بحول في تلك الاراضي الواقعة بين خط الاستواء وعشرين درجة من
العرض الى الجنوب . وقد ظهر الى الآن من اسفاره ان البلاد التي في تلك
النواحي مرتفعة عن البحر ارتفاعاً عظيماً ومشحونة بالبحيرات والانهر التي يستفص
نهر النيل اليها . وقد وجد التجارة بالعبيد هناك على شر حاله وبناء على ذلك
ارسلت الحكومة الانكليزية حديثاً السير بارتل فربر الى سلطان زنجبار الذي
يتعاطى شعبه هذه التجارة الفظيعة وبعد مناظرات طويلة عقدت معه عهداً على
ابطالها كما انها سعت في ابطالها في بلاد مصر وغير اماكن من سواحل افريقية
حتى يمكن القول ان الاتجار بالعبيد صار على وشك الزوال تماماً . وقد مات
لفنستون بعد ذلك بسنين قليلة وكثر تردد ستانلي وغيره الى باطن افريقية
وعرف كثيراً من امورها بما ستاتي بفرائد حجة للدين والدنيا

اما هواء هذه القارة فهو حار جداً نظراً الى وضعها الطبيعي وهب قليلة
الامطار والاشجار والجبال . واما صحاريها ورسومها فكثيرة جداً ويعسر المرور
فيها وفي بعض الاماكن تهب ريح السموم وهي مضرّة جداً ولا سيما للحجوات
والنبات . وفي اواسط افريقية كثير من الحيوانات البرية والوحوش الضارية



افعى من افاعي مصر السامة

كالاسد والثور والنهد والضبع
والفيل والكركن اي وحيد القرن
والزرافة . وفي اجامها انواع من
القروود والحيات العظيمة منها البواء
وهو جنس كثير الضرر يبلغ طوله
عشرين ذراعاً . وفي صحاريها كثير
من النعام وانواع الابل والغزلان .
وفي مجرياتها وانهرها التمساح

وفرس البحر وفيها ايضاً اجناس عديدة من الطيور المختلفة

اما عدد سكان هذه القارة فيبلغ تقريباً مئة مليون نفس منه سودان
وبربرية واقباط وحشة وغيرهم . وفي الصحراء الشمالية الكبيرة كثيرة من قبائل
العرب الرحّل يجولون من مكان الى مكان يجاهلون وخبولهم في طلب الغزو
والمرعى كما في بلاد العرب . والديانة العامة هي الاسلامية وبين السودان
مذاهب مختلفة من العبادة الاصنامية . ومع ان اللغة العامة هي العربية توجد
لغات كثيرة متنوعة في اواسط القارة

والمرجح ان اهل هذه القارة هم من نسل حام بن نوح الذي اتى وسكن
ارض مصر بعد بناء برج بابل وما يؤيد ذلك قرب مصر الى بلاد شنعار
ورغبة مصرام ابنة ان يسكنها ويؤسس فيها مملكة
وتنقسم هذه القارة الى عدة ممالك منها الديار المصرية التي اشتهرت قديماً

أكثر من سواها من الممالك بالمعارف والفنون كما سيأتي الكلام عليها في الفصل الآتي. ثم بلاد المغرب ويقال لها أيضاً بلاد البربر كتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وغيرها ثم بلاد النوبة والمحشة والسودان في أواسط القارة وغيرها من الأقاليم مما لا يسعنا ذكرها في هذا المختصر

— ١٠٠٢ —

الفصل الثاني

في تاريخ مصر

الباب الأول

في جغرافية مصر

يحد هذه البلاد شمالاً البحر المتوسط وشرقاً البحر الأحمر وخليج السويس وجنوباً بلاد النوبة وغرباً الصحراء وبلاد برقة وهي على شكل وادٍ بكتنفه جبالان شرقي وغربي يتخللهما نهر النيل من الجنوب الى الشمال ويصب في البحر المالح قرب مدينتي دمياط ورشيد وهو نهر عظيم يصلح لركوب السفن بفيض مرة في كل سنة في مدة معينة تقريباً بين ١٥ حزيران وأواسط ايلول فيبتدي النهر يزيد قليلاً قليلاً في مدة ثلاثة اشهر وفي ٥ آب تفتح الترع ونجري فيها المياه وتمتد الى داخل الاراضي البعيدة وتسقيها. ثم من تشرين الاول يبتدئ ينقص الى آخر ايار ولولاه لكانت ديار مصر في حالة نعيسة اقله الامطار لانه لا يقع بها مطر الا في الارياف والقرى البحرية ونادراً في الجهة الجنوبية وقد وصف

هذا النهر بعض الشعراء فقال

كان النيل ذو فهمٍ ولبٍ لما يبدو لخير الناس منه
فيأتي حين حاجتهم اليه ويمضي حين يستغنون عنه

وانقسمت مصر قديماً الى ثلاثة اقسام كبرى . الاول مصر العليا اي
الصعيد المتصل ببلاد النوبة التي قسم كبير منها تابع احكام مصر وكانت
قاعدتها مدينة ثيبة . ثم مصر الوسطى التي كانت عاصمتها مدينة منفيس الواقعة
بقرب اهرام الجيزة تجاه مدينة القاهرة الحالية وقد اضمحت الان خراباً بعد ان
كانت من اشهر مدائن العالم وكرسي الفراعنة في ذلك الزمان . ثم مصر السفلى
المعروفة باسم دلتا وسميت دلتا لانها اذ كانت منحصرة بين جدولين من النهر
شرقاً وغرباً والبحر شمالاً صارت مثلثاً فاشبهت الحرف الرابع في اللغة اليونانية Δ
وسميت باسمه . وكانت عاصمة هذا القسم مدينة هليوبوليس انحت وبنيت على
اساسها مدينة الاسكندرية ويتبعه ايضاً مدن اخرى شهيرة لا يسعنا تبيانها
اما تربة هذه البلاد فتعد من الدرجة الاولى في الخصب ومحاصيلها كثيرة
اخصها القطن والحنطة والفول وقصب السكر وهي بالاجمال بلاد غنية جداً .
اما عدد سكانها فيبلغ نحو ستة ملايين ويسكنها كثير من الاجانب والديانة
الغالبة فيها الاسلامية ويشيخها القبطية . وعلى راي المؤرخين ان الاقباط هم
المتنصرون من ذرية الامة المصرية القديمة واكثرهم يسكنون بلاد الصعيد
ونوبة واغلبهم تجار وساسة وكتبة . واما لغتهم فقد تلاشت واندثرت في اواسط
القرن السابع عشر ولم يبق من اثارها الا بعض كتب فقط قل من يفهمها وهم
الان يتكلمون باللغة العربية ولم بطربرك كرسية مدينة جرجاء يدعى البطريرك
الاسكندري والاورشليمي . وما زال القبط في هذه الايام على طريقة العهد
القديم من جهة الختان

وفي هذه البلاد تأسست الرهبنة أولاً . فانه بسبب الاضطهاد الذي اثاره
الامبراطور ديسبوس على المسيحيين في القرن الثالث فر كثير منهم الى البراري

للتخلص من جور الحكم وكان من جملة النازحين رجل يقال له بولس من مدينة ثيبة انفرد بذاته وانعكف على العبادة والاصوام فحسب اول من ظهر فيه روح الرهبنة . ولكنه ظهر في اوائل القرن الرابع رجل آخر يدعى انطونيوس فبنى ديراً وجمع فيه اناساً من كانوا يميلون للاعتزال عن العالم ونظم لهم قوانين للسلوك بموجبها واذلك سمي بابي الرهبان . ثم ان هذه الطريقة اخذت في الامتداد حتى انصلت الى فلسطين وسورية بواسطة احد خلفاء انطونيوس وبالتدرج عمت اكثر عالم النصرانية

الباب الثاني

في تاريخ مصر واهم الحوادث المتعلقة بفراعنتها من سنة ٢٢٠٠ ق م الى خروج الاسرائيليين^(١)

اما اخبار مصر القديمة وفراعنتها فحاطة بظلمة كثيفة وقلما يوثق بها

(١) انه اذا لم يتفق علماء التاريخ حتى الآن من جهة بداية التاريخ المصري بعصر علينا تعيين تاريخ ما لا عصوره الاولى غير اننا نتول انه اذا سلطنا بسلسلة تتابع الدول المصرية على ما جاء يومانيثو المورخ المصري وبالكفاهات الهيروغليفية المنقوشة على الآثار القديمة التي يظهر انها توافقه نضطر ان نرجع كثيراً الى وراء التاريخ الدارج الذي يجعل مجيئ المسيح ٢٢٤٨ سنة بعد الطوفان والمدة من الخليفة الى المسيح ٤٠٠٤ سنوات فلا يخفى ان التاريخ البحاري قائم على مجموع انساب مختلفة ذكرت التوراة خاصة في سفر التكوين مستخرج من اعمار البطارقة ولكنه امر معلوم ايضاً ان كل درجات الانساب لم تكن ضرورية الذكر في جداول اليهود كما يتضح من سلسلة نسب المسيح في لوقا ص ٣٦:٣ حيث يذكر قينان مع انه قد اهل ذكره في التكوين وكما يظهر ايضاً من ترتيب متى عهد نسب المسيح اذ يجعل المدة من ابراهيم اليوثلث مرات ١٤ جيلاً . ثم اذا حصينا المدة الفاصلة بين الطوفان وولادة ابراهيم من مواليد واعداد البطارقة العشرة

الاختلاف الواقع في عدد اسماء ملوكها وتواريخها . اما اسماء الملوك وعدد سني
تسلطهم على رواية مانيثو المورخ المصري فلم تكن جميعها متسابقة بل كان ملوك
كثيرون في عصر واحد منهم من كان مستقلاً باقليم ومنهم من كان منفرداً
بقاطعة اخرى ودُعوا جميعهم فراعنة جمع فرعون وهي كلمة مصرية اصلها فاراه
ومعناها نور الشمس . وقد عد المورخون دولها قبل فتوح الاسلام فكانت
نحو ثلاثين دولة فالدولة الاولى كانت قبل المسيح بنحو ٢٢٠٠ سنة واول ملوكها
منتر المسمى بالتوراة مصرام فكان معتبراً بين شعبه ومهيباً عندهم حتى انهم قدموا
له العبادة كاله وهو الذي بنى مدينة منفيس وحول النيل عن مجراه الاصلي
واصلح احوال الرعية بتحسين الزراعة ونظم القوانين والاحكام وكانت مدة حكمه
نحو ٦٢ سنة . وتلك بعده ابنه اثوتيس ويقال انه تولى على مصر العليا او
الصعيد مدة ٣٠ سنة في ايام ابيه وحكم بعده ٢٧ سنة وهو الذي شرع في تزيين
مدينة منفيس وتحسينها وبنى فيها الهياكل والقصور المشيدة وفي ايامه كانت
الدولة الثانية والثالثة متسلطتين على بعض اطراف المملكة . وذكر مانيثو انه في
حكم فرعون فيخوس الملك الثاني من الدولة الثانية تعين الثور ايس الها في
منفيس وبعد موت فيخوس المذكور تولى بوسيريس الذي بنى مدينة ثيبة في
بلاد الصعيد المدعوة الان لقصر ابي الحجاج وجعلها تحت الملك وكانت من اعظم
مدائن مصر في الزمان القديم

اما الدولة الرابعة فكان سرير ملكها في مدينة منفيس . ومن مشاهير

المسلمين من سام (تك ١٠: ١١ الى ٢٦) مجدها حسب النسخة العبرانية لا تتجاوز ٣٥١ سنة
حال كون النسختين السامرية والسبعينية تنفقان بجمل تلك المدة ٩٤٢ سنة . فبناء على
ذلك لا يمكن الاعتماد على تلك السلاسل النسبية ولا اعتبارها جداول اصلية لتاريخ العالم
العام لان النبي موسى لم يقصد فيها ضبط تاريخ عمومي للخلقة ولا ان يحدد زمن الطوفان
بالنسبة الى الزمن الذي عاشه هو فبه بل قصد ذكر ملخص نسب الملوك الموعود به . ولكن
مع كل ذلك قد استنبطنا ان تتبع في هذا الكتاب التاريخ المأخوذ عن الجداول الموسومة
بـ (استقى مع من اخذنا عنهم اقوالنا)

فراعتها الملك شوري ومتقاري وسوفيس الاول ثم سوفيس الثاني وهو اخو
سوفيس الاول ثم الملك شوفو واخوه نوشوفو وهما اللذان بنيا الهرم الاكبر في
ارض الجيزة وملكاً معاً كما يظهر من كتابة اسميهما المنقوشة على بعض حجارة
الهرم المذكور وقد وجد فيه مدفنان لها وهما غرفتان متقاربتان في جوانب
ذلك الهرم واما الملك متقاري فقد وجد اسمه في الهرم الثالث وتابوته الآن بين
الآثار القديمة في مدينة لندن

واما فراغت الدولة الخامسة فكانوا تسعة ملوك اشهرهم أسركيف وشافري
ونفراكريس اما الملك شافري فهو الذي بنى الهرم الثاني ولكن نُسب الى
سوفيس الثاني غلطاً

ومن ملوك الدولة السادسة الملكة نيكتوريس وكانت من اجل نساء
عصرها حسناً واشهرهن فضلاً وكالاً قيل كان لها اخ قتله بعض رجال دولتها
بغضاً وحسداً فاحالت عليهم الى ان جذبهم الى قصر لها تحت الارض بقرب
النيل بداعي وليمة اعدتها لهم فلما انتهوا بالاكل والشرب امرت بان ينساب
عليهم ماء النهر فغرقوا جميعاً

وفي ايام الدولة الثانية عشرة صارت مصر مملكة واحدة في دار ملك
واحدة وهي مدينة ثيبة التي كانت نخبة لاهدى الدول ولول من استقل بالملكة
وتغلب على باقي ولاياتها اوسيرطاسن الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة
والبعض يظنون انه سيزوستريس ولكن اليونان يطلقون اسم سيزوستريس
على رمسيس الثاني احد ملوك الدولة التاسعة عشرة كما سيأتي البيان . والى هذا
الملك يُنسب تأسيس مدينة الكرنك في بلاد الصعيد وافتتاح بلاد الحبشة
والعبيد . ثم خلفه عامونهي الثالث الذي اقام الابنية العظيمة في اقليم الفيوم
ورسم عليها اسمه وكانت مدة ملكه اربعاً واربعين سنة

اما ملوك الدولة الثالثة عشرة والرابعة عشرة فلا يوجد لها اخبار صريحة
حتى ان جميع مولفات المؤرخين قد خلت من ذكر اخبارها وتفاصيل احوالها .

وأما الدولتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة فاصلهما من مدينة ثيبة التي كانت تحت حكمها وكان آخر ملوك الدولة السادسة عشرة يدعى طياوس وفي أيامه كانت اغارة الملوك الرعاة على مملكة مصر وهي الدولة السابعة عشرة العربية المعاصرة للدولة السابعة عشرة المصرية الملكية

ان افتتاح الرعاة بلاد مصر هو حادثة كثيرة الاهمية في التاريخ المصري وقد وقع الاختلاف بين المؤرخين واهل التحقيق من جهة هؤلاء القوم فبعضهم يجعلهم من الامة العبرانية وبعضهم يقول انهم من اهل قبطية ولكن هذه النصوص لا تطابق هيئة اشكالهم المرسومة على الآثار المصرية لانهم كانوا يصورون على الأعمدة والصخور كشعب موسومة اجسادهم بالوشم الأزرق ومشحين بجلود غنم فهذه الاشارات تدل على امة عربية لا على شعوب عبرانية او فينيقية ولا سيما ان دولتهم كانت تسمى هيئك سوس في اللغة المصرية اي الملوك الرعاة لان لفظة هيئك كانت تستعمل عند قدماء المصريين بمعنى الملك ومعنى سوس الرعاة فاذا زيد عليها واو وقيل سوسو كانت بمعنى العرب . وخلاصة الكلام فيهم انه في زمن الملك طياوس احد ملوك الدولة السادسة عشرة جاء الى مصر طوائف مختلفة تحت راية الوليد بن دومغ وهو الذي يسكن عند اليونان سلاطيس فحارب مصر السفلى والوسطى وغلب عليها بعد هجمات كثيرة وحروب هائلة ولما استقر بالولاية احرق المعابد والهياكل وبنى القلاع والحصون وشحنها بالعساكر ومهمات الحرب خوفاً من هجوم المصريين وغيرهم من الطوائف الاجنبية على البلاد وجعل مدينة منفيس تحت الملكة وانتقل ملك مصر الى الملوك الرعاة ما عدا بلاد الصعيد فانها بقيت مستقلة تحت حكم العائلة الملكية المصرية في مدينة ثيبة التي هي دار الفراعنة . وفي ذلك الوقت كان في الديار المصرية مملكتان وهما مملكة الفراعنة ومملكة الملوك الرعاة المتغلبين في منفيس . وكان المصريون يكرهونهم وينفرون منهم لقساوتهم وكثرة جورهم واحتقارهم الديانة المصرية واستمرت احكام البلاد في ايديهم نحو ٢٦٠ سنة وقال بعضهم ٥١١ سنة ويصعب

تعيين وضبط تاريخ مدقق لتلك الأعصار الأولية لعدم اتفاق المؤرخين في ذلك ولعل الأول هو الأصح وما زالت البلاد تحت تسلطهم حتى استخلصها منهم فرعون اموسيس بعد وقائع وحروب متعددة

ونولى بعد اموسيس المذكور ابنه امنوفيس الأول نحو سنة ١٨٠٠ ق م وهو رأس الدولة الثامنة عشرة فاعاد كرسي الملكة في مننيس واستقل باحكام مصر مع مضافاتها ولواحقها . وفي ايامه وجد كثير من صور الخيول منقوشة ومرسومة على الحجارة والصخور والمظنون ان هذه الحيوانات لم يكن لها وجود قبل دخول الرعاة الى مصر ولكن هم الذين ادخلوها لانها لو كانت موجودة قديماً لكان لا بد من نقشها مع باقي الحيوانات التي كانت الاهالي تعني برسمها وقد كثر هذا النوع من الحيوانات في تلك البلاد حتى صارت التجار تستجلبه من الديار المصرية الى الاقطار الشامية في ايام الملك سليمان بن داود . وما يستحق ان يذكر انه وجد في هذه الايام تابوت والدته هذا الملك ومن داخله قلادة وسلسلة من الذهب مع سيف وتاج عليه تماثلان من الذهب وهو الآن محفوظ في بيب الآثار القديمة ببولاق وبالجملية قد تحسنت مصر في ايام هذا الملك وسرّت الناس باحكامه . ومن آثار هذا الملك الرواق الشهير الموجود في هبكل الكرنك الذي هو من ابداع الابنية القديمة ولم يزل الى الآن اسمه مرسوماً على القناطر القريديّة التي بنواحي ثيبة وصورتها في قاعة التماثيل الملكية بالصعيد وبجانبه ملكة حبشية ومن ذلك يستدل على ان المصريين كانوا يتزوجون بالسودان

ومن ملوك هذه الدولة فرعون طوطميس الثالث ملك سنة ١٧٥١ ق م وكان من عظام ملوك الدولة الثامنة عشرة لانه فتح مدناً كثيرة أكثر من جميع سلفائه ومن جملة آثاره المسلة التي نقلت الى الاسكندرية والمسلة التي في الآن في القسطنطينية واخرى في رومية مكتوب عليها اسمه وله أيضاً آثار اخر عظيمة منها الرواق الملكي الموجود في الكرنك وصورته هناك ايضاً . وهو الذي بيع

يوسف الى مصر في ايامه على ما بظن وفسر له احلامه المذكورة في الاسفار الموسوية وتقدم في بابه تقدماً عظيماً حتى صار صاحب المحل والربط وقد اختلف المورخون من جهة شخص فرعون يوسف من هو من الفراعنة فزعم البعض انه كان من الملوك الرعاة الذين تغلبوا على مصر واسمه الريان بن الوليد المعروف عند اليونان باسم ابي فاس وقال احد المتأخرين ان هذا الزعم لا يصح نظراً لتقدم عهد تلك المدة والاصح ان دخول يوسف الى مصر كان بعد انقراض دولة الرعاة . ويؤيد ذلك كلام مانيشو المورخ اذ قال في كلامه على مدينة منف وعاش بها يوسف ونسلط على البلاد في زمن اقدر واعظم فراعنة الملكة الجديدة بعد نفي الرعاة وخروجهم من البلاد . ثم من قصة يوسف المذكورة في التوراة نرى ان مصر كانت في ذلك الوقت مملكة مستقلة بذاتها وان استعدادات فرعون واحباطاته في سني المجاعة يتضح منها ان رياسته كانت ممتدة على كل بلاد مصر كما يتضح من كلام يوسف لاختوته بقوله لم ان الله قد جعلني اباً لفرعون وسيداً لكل بيته ومسلطاً على كل ارض مصر . والمعلوم من التواريخ ان دولة الرعاة عند ما استظهرت على الديار المصرية لم تغلب على كل اقطار المملكة بل على اسافلها واريافها فلو فرضنا ان ذلك الملك كان من طائفة الرعاة كما توهمه اكثر المورخين لما قال ليوسف اني جعلتك مسلطاً على كل ارض مصر لان احكامه لم تكن ممتدة على كل ارض مصر بل كانت محدودة من شطوط بحر الروم الى اطراف بحر السويس ما عدا بلاد الصعيد التي هي اكبر اقسام مصر واعظمها . ومن كلام فرعون ليوسف حيث يقول ان علمت انه يوجد بين اخوتك احد يحسن المرعى فاجعلهم رعاة وروساء على مواشي يستدل على انه لم يكن بين عبيد فرعون من يحسن تربية المواشي واذالك اخنار الملك اخوة يوسف ليس فقط للمراعهم بل ليعلموا المصريين تلك الصناعة . فلو كان فرعون من ملوك العرب الرعاة لوجد في نومه من العرب او العالقة من هم اخبر وادري من اخوة يوسف

بسياسة المواثي فينضح ما تقدم ان فرعون يوسف لم يكن من ملوك العرب ان
العائلة بل كان من العائلة المصرية

ومن ملوك الدولة الثامنة عشرة امنوفيس الثالث الملقب عند اليونان
بالممنون وهو من اشرف فراعنة هذه السلسلة وله صيت عظيم في الاقطار المغربية
قبل انه لم يكن من جنس المصريين بل انه اغتصب الملكة وتسلط عليها بداخله
مع احد الفراعنة بالزيجة وما يؤيد ذلك ان قبره الذي في مدينة ثيبة منفرد
عن قبور باقي الفراعنة . وكان قد ادعى لنفسه الالهية وانشأ هيكلًا على ميسرة
النيل تجاه ناحية ثيبة وقد تخرب الآن وانهدم ولم يبق من اثره الا الصنم الكبير
وهو عبارة عن صورة هذا الملك

وكان المصريون يعبدون هذا الصنم ويعتقدون انه كل ما اشرقت



كاهن مصري

الشمس يسمع منه صوت . فكان الناس
يتاثرون من ذلك ولا يعلمون السبب
وظن بعض الرومان واليونان ان مصدر
هذه الاصوات كان من اثر الندي في الليل
وانه عند شروق الشمس وارسال اشعتها
اليوم يسمع منه هذا الصوت من اثر الحرارة
في الحجر غير ان الامتحان في هذه الايام
كشف الحجاب وذلك ان السيد
كردنرويلكنسون الانكليزي لما اتى
للفرجة على هذا الصنم وجد في جوفه حجراً

اذا ضرب به سمع له طنين وتكتكة . فكان الكاهن يدخله في وقت السحر
بحيث لا يراه احد من الشعب ويقرع صدر الصنم بذلك الحجر وكان الكهنة
يفعلون ذلك لاجل خداع امنهم بهذه الاحتيال ويجعلونهم يصدقون بالوهية
الصنم المذكور وبقيت اكاذيبهم مستترة اكثر من ثلاثة الاف سنة حتى جاء

ويلكنمون المذكور وكشف حجابها وخزعبلائها المسترة

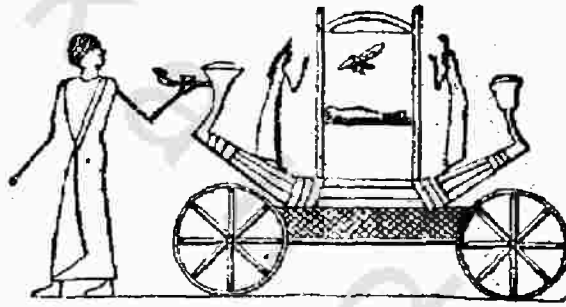
ومن اشهر فراعنة مصر الملك رمسيس الثاني المشهور عند اليونان باسم
سيزوستريس وهو الملك الثالث من فراعنة الدولة التاسعة عشرة وكان ملكاً
عظيماً ظافراً كثير المغازي والغارات قد ملأ مشارق الارض بصيت فتوحاته
وارهب مغاربها بهيبة بأسه وسطوانته ولم يكن احد قبله من ملوك مصر عبر
البحر الاحمر فجهز عمارة عظيمة نحو اربع مئة سفينة حربية وتغلب على سواحل
هذا البحر وعلى جزائر بحر الهند . وامتد ملكه من نهر الكنتك في اسيا الى نهر
الدايوب اي الطونه في اوروبا وكان كلما فتح قطراً واستولى على مملكة من
الممالك شيد فيها هياكل واثاراً تدل على نصراته وفتوحاته واني فيها فرقة من
الجنود المصرية ليستوطنوا فيها وينشروا بها ديانتهم وعوائدهم لتكون علامة
ظاهرة لتخليد ذكره على مر الايام ورسم على تلك الاثار كيفية عبوره الى
هاتيك البلاد ونقش تاريخ استيلائه على ممالك الدول ولم يزل بعضها باقياً
الى الآن

وقد اقام سيزوستريس في مصر هياكل عديدة من اموال الغنائم التي
سلبها من الامم حتى لا يكاد يوجد في وادي النيل اثر من الابنية القديمة الا
وعلى اربعة ورسة وقد ما يلزم من الجسور والناظر والتمتع والتجليات بالخدمة
البلاد ورفع الاراضي المنخفضة التي يفسدها فيضان النيل بحيث لا يكون للماء
سلطة عليها وبالجملة قد وصلت مصر في ايامه الى اقصى درجات الرفعة والمجد
وزدهت ايضاً بالعلوم والفنون وهو الذي قسم المملكة الى ست وثلاثين ايالة
واقام على كل ايالة نواباً لاجل جمع الجزية وهو الذي رسم صورة الخارطة على
ما قيل وصور فيها صورة المدن التي افتتحها لبيد لاهل مصر عظيم ملكه
وانساعه . وكان فيه نية وتعاظم حتى انه كان اذا ركب في موكب لزيارة
المعابد او المنتزه ياتي ببعض الملوك الذين كان قد اسرهم ويابسهم ثيابهم الملكية
ثم يرطهم كالخيل اربعة اربعة ليحروا المركبة . ولكن بعد رجوعه من ذلك

الموكب كان بكرهم ويحسن إليهم . شس الكرامة والاحسان بعد تلك المعاملة



مركبة مصرية بعجلتين



مركبة مصرية بأربع عجالات

وذكر المؤرخون انه لما استولت دولة الفرس على مصر كانت في رواق
الصور الملكية بمدينة ثيبة بالصعيد صورة سينوستريس فلما راها داريوس
ملك الفرس اراد ان يضع صورته في هذا الرواق فوق صورة سينوستريس
المذكور فغضب رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور من قصد الملك داريوس
وقال له بكل جسارة لا يجوز لاحد من الملوك ان يعلو على رمسيس الاكبر
من ساواه في المآثر والأعمال العظيمة فلم يغضب داريوس من كلامه بل
اجابه قائلاً انه ان عاش عمر سينوستريس ليمتدّد ويفعل لمصر من المنافع
ما فعله هذا الملك العظيم حتى لا يكون دونه في الشهرة ورفعة المقام . وعاش
سينوستريس عمراً طويلاً وكانت مدة حكمه على ما رواه مانيتو المؤرخ ٦٣

سنة وقال بوسيفوس ٦٦ سنة وكان قد عي في آخر حياته وقتل نفسه يده
والسياح في ايامنا هذه برون اسمه وتاريخ حرويه ونصرايه مصورة ومنقوشة على
حيطان القصور والهياكل والاعمدة في الدوبة والكرك وثيبة

وتولى بعده ابنة منقطا الثاني سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ولهذا الملك ابنة
وماثر كثيرة في الديار المصرية وكانت مدة حكمه تسع سنين وعلى راي بعض
المدققين المتأخرين انه في ايام هذا الملك خرج بنو اسرائيل من مصر تحت
رياسة موسى سنة ١٤٩١ ق م بعد معجزات كثيرة . وما يدل على صحة كون
هذا الملك هو نفس فرعون الخروج هو انه مات عن ابنة يقال لها طوسير
وابن قاصر يعرف بمنقطا الثالث فتولت البنات قبل اخيها لقصوره وتزوجت
برجل من الامراء يقال له صنفطا منقطا ومعناه عبد النار وكان زوجها
يحكم عنها بالنيابة فجلوس هذه الملكة بعد موت ابيها على كرسي الملكة وزواجها
برجل ليس هو من بيت الملك مع كثرة العائلة الملكية من ذرية جدها
سينوستريس الذي كان قد خاف نحو عشرين ولدا ذكرا تدل دلالة قوية
على وقوع حادثة عظيمة مهولة افترضت بها ذكورهم وهي غرق فرعون وقومه .
ومن العجب ان قدماء المصريين يكتفون حادثة غرق فرعون وينكرونها
بالكلية خوفا من الفضيحة والعار في القرون المستقبلية . ولا عجب من كتمان
المصريين هذه الحادثة لاننا نجد في هذه الايام المنورة من ينكرها ايضا اذ
ينسبون انفلاق البحر الى حادثة طبيعية وهي المد والجزر الدوراني . وان قال
قائل كيف يمكن ان يكون منقطا الثاني هو ذات فرعون الذي غرق في البحر
الاحمر حال كون قبره الان بين قبور الملوك الباقية بالصعيد في الجهة
المعروفة بباب الملوك فنقول ان ذلك ليس ببرهان قاطع لتأييد الاعتراض
لان وجود القبر لا يدل على وجود مقبور فيه فكثيرا ما نرى مشاهد ومدافن
في اماكن مختلفة على اسم انبياء وانحصاص مشهورة ومدفنهم الحقيقي في غيرها من
البلاد فانه يجوز ان يكون فرعون هذا قد بنى لنفسه مدفنا في حياته حسب

العادة التي كانت جارية بين ملوك ذلك العصر ولم يدفن فيه . وعلى فرض أنكار هذه العادة فقد تقدم أن مورخي المصريين لم يذكروا شيئاً من هذه الحادثة بقصد اخنائها في العصور المستقبلية فلا يستعبد أن يكونوا قد بنوا له قبراً لاثبات دعواهم بهذا الإنكار وتحميل من براه على تكذيب هذه الواقعة

الباب الثالث

في ولاية فرعون شيشق سنة ٩٩٠ ق م الى بداية حكم الدولة
البطليموسية سنة ٢٢٢ ق م

ومن مشاهير فراعنة مصر الملك شيشق الاول وهو راس الدولة الثانية والعشرين واول ملوكها تلك نحو سنة ٩٩٠ ق م وكان سريره بمدينة بسطة بالشرقية المعروفة الآن ببل بسطة الذي هو بقرب الزقازيق وهو الذي هرب اليو يورعام بن ناباط ملك اسرائيل مستغيثاً به فنهض قاصداً اورشليم بالف ومثي مركبة وستين الف فارس وحارب رجبعام بن سليمان ملك يهوذا وكان في جيشه قوم من السودان والحبشة فافتتح مدن يهوذا ونهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك واخذ انراس الذهب التي عملها سليمان ثم عاد الى مصر . وتاريخ هذا الفتح لم يزل مصوراً على حيطان هيكل الكرنك العظيم ومكتوباً عليه يهوذا ملكي اي ملكة يهوذا تحت قبضة يدي مع صور كثيرة من الاسرى الذين اسرهم في حربه ومغازيه وعلى صدورهم اسم جنسهم وبلادهم . وقد حكم هذا الملك ٢٢ سنة

وخلفه ابنه اوسرخان الاول وهو المعبر عنه في التوراة بالملك زارح الحبشي

حارب ملكة يهوذا بنحو مليون من النفوس وثلاث مئة مركبة حربية فصار ملك يهوذا للملاقاة واصطفت جنود الفريقين في وادي صفد فالتى الله الرعب في قلوب المصريين فهربوا جميعاً والمراد بالحشة في التوراة هم المصريون ومن معهم من الجنود الاجنبية الحبشية . وكانت مدة حكم هذا الملك خمس عشرة سنة . اما باقي ملوك هذه الدولة فقلما نعلم من انبأهم شيئاً . وقد وجد على بعض الاعمدة في مقبرة ايسس بالقرب من منفيس اسماء ملوكها وكيفية جلوسهم على الكرسي واحد بعد الآخر وهم

شيشق الاول	تكلات الاول
اوسرخون الاول ابنه	اوسرخون الثالث
هرشاسب ابنه	شيشق الثالث
اوسرخون الثاني	تكلات الثاني
شيشق الثاني	

ومن فراعنة مصر الملك سباطون وهو راس الدولة الخامسة والعشرين السودانية الحبشية التي كانت قد استولت على الديار المصرية سنة ٧١٤ ق م . ثم تولى بعده اخوه سواخوس وهو المذكور في التوراة باسم سوا الذي استغاث به هوشع ملك اسرائيل على شلمانصر ملك اشور . ثم ملك بعده طهرق وكان ملكاً عظيماً ظافراً ذا شوكة وباس . وهو الذي زاد تحسين الهيكل الذي بناه حي جبل البركل في بلاد الحبشة ووسعه وزخرقه وازاد ايضاً قاعة عظيمة الى هيكل مدينة آبو في ثيبة حيث أخبار غلباته على الاشوريين في ايام سنجاريب عند ما غزا الديار المصرية . وقد وجد في هذه الايام في آثار مدينة آبو تمثال هذا الملك منقوشاً عليه انه حكم الحبشة ومصر وجميع مدن افريقية وكانت مدة حكمه خمساً وعشرين سنة وبه انتهت حكومة دولة الحبشة من بلاد مصر

ومن فراعنة مصر الملك بساماتيكوس الاول الذي يسميه هيرودوتوس

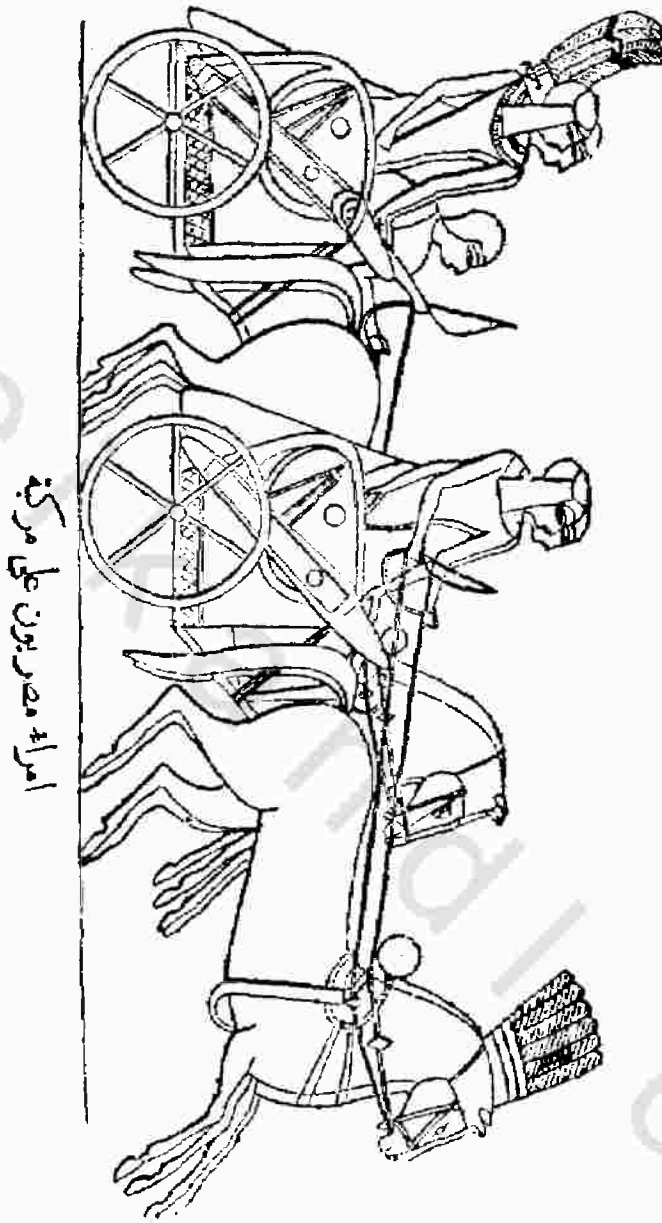
ابساميس وهو راس الدولة السادسة والعشرين كان ابتداء ملكه قبل المسيح بست مئة وأربع وستين سنة وكانت مملكة مصر قد انقسمت قبل هذا الملك بين اثني عشر قائداً من عظامها فطرد القواد المذكورين واستقل بالملكة وكان رجلاً حاداً قافلاً محمود السيرة وتعتبر مدة ملكه مدة مهمة للغاية اذ في زمانه انتهى الابهام والالتباس التاريخي واشرفت شمس المعرفة الحقيقية في التاريخ المصري . وفي ايام هذا الملك شاع استعمال الكتابة بالاحرف الالهية واتسبى بين الناس علم الكتابة المصورة وصارت مصر مملكة واحدة منتظمة قصبتها مدينة منفيس وفي ايامه بلغت بلاد مصر درجة سامية في الثمن والمعارف والغنى لانه اهتم بتحسينها وتنظيمها وجدد معاهدات تجارية بينه وبين اليونان واهل صور وسهل اسباب الاخذ والعطاء حتى صارت مصر مركزاً للتجارة الامم . وكان قد اتخذ من اليونان عسكرياً وجعل منهم قواداً وروساء وقلدهم اسنى المناصب وخالف في ذلك عوائد من تقدمه من الفراعنة وهذه الوسيلة ازدادت جنود مصر غيظاً وحنقاً عليه . وقيل انه لما حارب فلسطين جعل جنود اليونانيين في المينة وترك للمصريين الميسرة التي كانت علامة الذل والاهانة فغضب المصريون من جراء ذلك وخد اكثرهم عليه وارند منهم جماعة الى مصر . ولهذا الملك اثار كثيرة في الديار المصرية من الابنية المزخرفة والاعمدة الجميلة في ثيبة والكركنك وقد زيد الهياكل باحسن النقوش واجملها وكانت مدة ملكه نحو ٥٤ سنة

ثم تولى بعده ابنه نخو سنة ٦١٠ ق م وكان كاييه له عناية واهتمام بتحسين احوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة وهو الذي شرع في ابصال نهر النيل بالبحر الاحمر بواسطة ترع طولها ٩٦ ميلاً ولكنه بعد ما اهلك مئة وعشرين الف نسمة من قومه في هذا العمل تركه غير كامل . وكان ملكاً مظفراً افتتح ممالك كثيرة واستولى على اكثر مدائن اسيا واتصر على ملك بابل وعند رجوعه عزل يهوياحاز بن يوشيا ملك اورشليم وولى مكانه اخاه الياقيم

وضرب على شعب يهوذا خراجاً يدفعونه له في كل عام وهو مئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب واخذ يهوياحاز معه الى مصر اسيراً وفي ايام الياقيم المذكور تولى نبوخذ نصر الاول ملكاً على بابل فجهز الجيوش والعساكر وزحف الى اورشليم وملكها واسترد ما كان اكتسبه نحو من بلاده وانقطع حكم فرعون على اورشليم وخسر كل ما كان افتتحه من الممالك والمدن في اسيا وكانت مدة ملكه على رواية هيرودونس ست عشرة سنة وعلى رواية مانيتوس ست سنوات والاول اصح واشهر

ثم قام بعده ابنه بسامانيكوس الثاني سنة ٥٩٤ ق م ومات في السنة السادسة للملك بعد رجوعه من فتوحاته في الحبشة وخلفه ابنه ابريس المدعى ايضاً فرعون خزرع وهو المذكور في ارميا ٢٠: ٣٤ ومن اعماله انه جهز جيشاً عظيماً لمحاربة اسيا فحاصر صيدا وصور واخضع جميع بلاد فينيقية وفلسطين وفي ايامه حدث انقسام في المملكة وقتل وحروب كثيرة وفي اثناء ذلك زحف نبوخذ نصر ملك فارس في جيش عظيم الى مصر ففتحها بعد حصار طويل وهدم هياكلها وابراجها ووقع فرعون خزرع في يد فامر بشفه . ثم رجع نبوخذ نصر الى بلاده واستخاف على مصر رجلاً من اعيان المصريين يقال له اماسيس فاقام بامرها اثم قيام ثم تمرد اخيراً على الدولة الفارسية واستقل بالمملكة المصرية واخضع لحكمه جزيرة قبرس وكانت مدة ملكه ٤٤ سنة . وتولى بعده ابنه بسامانيكوس الثالث وفي ايام هذا الملك زحف كميز بن كورش ملك فارس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد بالجيوش والعساكر لافتتاح مصر بسبب عصيان اماسيس على الملكة الفارسية فتغلب عليها بعد حروب كثيرة ووفائع مهولة وقبض على بسامانيكوس والزمه ان يشرب مقداراً كثيراً من دم الثيران ففعل ذلك به كالمم ومات وخضعت لكميز بعد ذلك كل بلاد مصر وصارت مقاطعة فارسية وتوالت عليها نواب الفرس كما مر في ترجمة كميز عند ذكر ملوك فارس

وسنة ٤١٢ ق م كره المصريون حكم الفرس عليهم ونفروا من عبوديتهم



امراء مصريون على مركبة

فعصوهم مرة أخرى في السنة العاشرة من حكم داريوس نوثوس ملك فارس ونالوا حريتهم وكان الملك ارتزركسيس قد شرع في الاستعدادات اللازمة لاسترداد مصر فات قبل ان يقيم حرباً . ثم قام بعده ابنه داريوس الثالث اودارا اخوش سنة ٢٥٨ ق م وفي السنة العشرين من حكمه جهز جيشاً عرمرماً وسار قاصداً الديار المصرية وعند وصوله اليها جرى بينه وبين المصريين

جملة وقائع فتغلب عليهم وسقطت مصر في ايدي الفرس مرةً ثالثةً وهكذا



عسكري اشوري

عسكري مصري

تمت نبوة حزقيال ١٣:٣٠ حيث يقول ولا يكون بعدُ رئيسٌ من ارض مصر
ومن ذلك الوقت الى يومنا هذا بقيت مصر تحت تسلط الغرباء ولم يملك
ملكٌ عليها منها

فاستمرَّت مملكة مصر خاضعة للفرس نحو تسع سنين الى ان افتتحها
اسكندر ذو القرنين سنة ٣٣٢ ق م وهو الذي بنى مدينة الاسكندرية وسماها
باسمهِ وجعلها على نسق المباني المكدونية واذن لكثير من اهالي بلاد اليونان
واهالي المشرق ان يستوطنوا بها وفتح ابوابها لجميع الناس واعدها مركزاً
جديداً لتجارة اهل العالم فصارت كذلك الى يومنا هذا . وبعد وفاة اسكندر
تولى زمام مصر الدولة البطلموسية كما سيأتي بيان حكمهم في محله

الباب الرابع

في تمدن المصريين القدماء وصنائعهم وعقائدهم
وما يتعلق بهم

يظهر جلياً من دلائل الآثار والتواريخ المصرية ان المصريين قد تقدموا قديماً في انواع المعارف والفنون العقلية والفلسفة الكمية تقدماً عجبياً وبرعوا في علم الهيئة والنجوم والهندسة براعة غريبة ولا سيما فن الطب فانهم كانوا قد انقنوه اقناناً جيداً وكان الطبيب عندهم لا يتفرغ الا لمعالجة مرض واحد من الامراض فلذا السبب نجاح فيه وبرعوا . واثارهم كآبنتهم العظيمة المدهشة دلائل ظاهرة على تقدمهم وبراعتهم في تلك العصور المظلمة وعلى الخصوص الاهرام التي تذهل عيون الناظر بارتفاعها ولا يزال الى الان ثلاثة من اعظمها في ارض الجزيرة وهي بعيدة اميالاً قليلة عن القاهرة واعظم هذه الاهرام مزيج القاعدة وطول كل من جوانب قاعدته ٧٥٠ قدماً وارتفاعه نحو خمس مئة قدم وهذه الاهرام مبنية بحجارة صلبة جداً يبلغ طول كل حجر منها ما بين عشرة اذرع الى عشرين ذراعاً وعرضه ما بين ذراعين الى ثلاث اذرع وقد سلكوا في بنائها طريقاً عجيباً من حسن الصنعة والضبط والاتقان فلا تجد بين الحجر والحجر مدخل ابرة ولا خلل شعرة . واما خرب مدينة ثيبة وغيرها من المدن المجاورة لها في بلاد الصعيد فيبان عظمها وعجائب ما فيها من المياكل والاعمدة والمائيل والمعابد المزخرفة بنوق التصديق حتى ان السائح اذا شاهدتها وتامل في اشكالها وبنائها يابه التامل في الماضي عن ملاحظة الحاضر وتلبيه قوة

اهلها عن التفكير في فواحشهم . وكانت لهم اليد الطولى في صياغة الذهب والفضة والاولا في المختلفة فكان صياغهم يصيغون خواتم نفيسة وفلائد ثمينة يبيعون ويشترون بها

وهم الذين اخترعوا آلة الحراثة وصبغوا الزجاج بالوان متنوعة كلون الزمرد والعقيق وغيرها . واما تجارهم فانحصرت في غلالهم ومحصولاتهم وكان لهم اتصال مع الهند بواسطة بلاد العرب فكانوا يرسلون الى تلك النواحي ما راج عندهم من الحبوب والماشي والفخار والزجاج ويسبدلون بها منهم العطر والبهار والياقوت وغير ذلك

وكان لهم احكام غريبة وعوائد عجيبة تدون في تواريجهم ودفاتر شرائعهم منها انه اذا احتاج انسان الى اقتراض مبلغ يجوز له ان يقترض ويرهن فيه نظير دينه جنة والده المدفونة فيكون قبره في المديون تحت يد الدائن الى وقت استحقاق المال فاذا لم يفر المديون دينه ومات حرم من دفنه في مقابر والديه ونحم اولاده ايضا ما لم يوفوا دين والدهم . ومنها ايضا انهم كانوا يغيضون الاجانب بغضا عظيما فلا يجالسونهم ولا يتناولون معهم طعاما . ومنها اذا مات منهم احد من الاشراف ترمغ نساء بيته واقاريه وجوهه بالوحل ثم يقرعن صدورهن ويطنن في المدينة صارخات باكيات وهكذا يفعل الرجال ايضا وبعد ذلك ياتون بالجسد الى المختطين وبعد التحنيط يصير القضاة على الميت وهو انهم ياتون بالحنة الى امام كرسي القضاة فان كان الميت من اهل الصلاح والتقوى وجاء من شهد بذلك برز القضاة بدفنه مكرما وان كان ذميا قبيحا دفن على خلاف اللائق ولو كان من اعظم الاشراف ويقال ان كثيرين من الفراعنة لقباحتهم حرموا من واجبات الدفن الاحتمالية في قبورهم التي كانوا يصرفون زمنا طويلا في تزيينها داخل الاهرام

واما صناعة التحنيط فكانت باخراج دماغ القحف من المخربن واخراج الامعاء الا القلب والكليتين من ثقب في الخاصرة ثم يغسلونها بمخمر النخل

ويردونها الى اجوافها ولاؤن الراس واجواف الامعاء بالمر والقرفة وكل انواع
الاطياب والطور ويدهنون الجسد بالزيت العطرية مدة ثلاثين يوماً ثم
يوضع في ماء نظرون اربعين يوماً ثم يلف بلفائف مغموسة بالمر وتدخن اللفائف
من خارج بماء الصمغ للوقاية من الهواء ثم يوضع في تابوت من خشب او من
حجر ويدفع لاهله فيبقونه في بيوتهم او يضعونه في مدفن ومن هذه الاجساد ما
هو باق الى ايامنا هذه

واما ديانتهم فهي عبادة الاوثان فكانوا يعبدون الطيور والوحوش
والشمس والقمر والنجوم . وكان من اعظم الهتهم العجل المسمى عندهم ايس وكانوا
يتعبون جداً حتى يجذوه لانه لم يكن كباقي العجول بل يجب ان يكون مولوداً
من عجلة نزل عليها البرق وان يكون
شعره اسود وان يكون ايضاً على جبهته
بقعة بيضاء مثثة الزوايا وفوق كل ذلك
يجب ان يكون على ظهره صورة نسر
وتحت لسانه صورة خنفسه ويكون شعر
ذنبه مضاعفاً وكان هذا العجل الهماً للعموم
واما الكهنة فكانوا يعتقدونه رمزاً عن



العجل ايس . معبود المصريين

اوزيريس الذي هو اله الشمس . واما باقي الحيوانات الاخرى فكانت عندهم
رمزاً عن بعض الالهة وعينت الشريعة اناساً مخصوصين لخدمة هذه الحيوانات .
واذا قتل انسان احد هذه الحيوانات عمداً عُرِقب بالموت

واما احكامهم الملكية فكانت مقيدة بوجود المجالس وكانت سطوة الملك
نافذة في جميع الرعية اما الكهنة فكانوا اصحاب الشرائع والعلوم ومن وظائفهم
مسح الاراضي وتقسيم الخراج على الناس ولم يكونوا يدفعون الجزية عن املاكهم
وكان لكل منهم كل يوم قسم من اللحوم المقدسة ومن لحم البقر والاوز ومن العجيب
انه لم يسمح لهم ان ياكلوا سمكاً وكانوا يحافظون جداً على نظافة اجسادهم وملابسهم

وذكر هيرودوتس انهم كانوا يحلقون شعر اجسادهم كل ثلاثة ايام ولم يسمح لهم ان يلبسوا الاثواباً من كتان وكانوا يغتسلون بماء بارد مرتين في النهار ومرتين في الليل . اما الاراضي فكانت كلها الفاك والكهنة والحاربين واما الحراثون فلم يكونوا الا كالأجري يشتغلون لغيرهم كالمستعبدين



مقانع شعر كانت كثيرة الاستعمال عند نساء المصريين القدماء

وكانت لغتهم من اعجب اللغات لانهم لم تكن تكتب باحرف هجائية بل باشارات مستعارة من الاشباح الطبيعية وهي على نوعين الاول يشير الى اصوات يدل عليها بعض النقوش من التصاوير المختلفة . والثاني تحت هيئة اشباح

تدل على جلٍ مختصرة . وانهصر هذا النوع في روءاء الكهنة فقط وفي هذا
العلم مجهولاً بين الناس حتى اهتدى الى معرفته الحاذق الشهير المعلم شنبليون
الفرنساوي سنة ١٨٢٢ مسيحية

الباب الخامس

في الدولة البطليموسية التي تغلبت على الديار المصرية
بعد الفراعنة

انه بعد موت اسكندر الكبير تولى الملكة المصرية الدولة البليموسية ووقعت
في نصيب سوطير بن لاغوس حين مقاسمة مالك اسكندر سنة ٢٢٢ قبل الميلاد
ويقال انه كان ابن فيلبس ابي اسكندر من بعض جواريه . وكان سوطير
المذكور وهو بطليموس الاول يعرف اعتبار مصر ومقامها وكان حاذقاً عادلاً
محباً للعلوم وهو الذي اتخذ الاسكندرية داراً للملك وجمع فيها المكتبة المشهورة
وانشأ بها مدرسة عظيمة وجدّد مدناً كثيرة وفتح الترع المردومة واعتنى بانساع
التجارة واصلاح امور الزراعة والفلاحة وازدادت الملكة في ايامه غنى وعلماً
وتدناً . وكان قد جهز جيشاً وارسل من قبله قائداً للتغلب على الديار الشامية
فاقتحمها واستولى عليها واستطال ذلك القائد على اليهود واسر منهم نحو مئة
الف نفس وساقهم الى مصر وجار على من تخلف منهم بفلسطين جوراً عنيفاً
وتفرغ بطليموس في آخر ايامه لتنظيم الملكة فشرع في تميم الهياكل
والنصور والمباني العظيمة فمنها ضريح اسكندر الكبير الذي لا يعرف الآن

محل وجوده ومنارة الاسكندرية وغيرها وكثرت في ايامه التجارات والمخالطات مع الامم الاجنبية وبهذا تمكنت دولته وامتدت صولته مع انه سكن الاسكندرية وجعلها كرسي ملكه ابني مدينة منفيس على حالها لانها دار السلطنة رسماً ومقر سرير الاحتفالات الملكية لا يلبس الملك التاج الملكي الا فيها فصانت بمنزلة مصر القاهرة الآن بالنسبة الى الاسكندرية وكان فيها الهيكل الكبير المشتمل على الشعائر الدينية . وعاش هذا الملك متمتعاً بالسلم والراحة الى ان بلغ الثمانين من عمره ثم مات لتسع وثلاثين سنة من ملكه .

ثم قام بعده ابنه بطليموس الثاني الملقب فيلادلفوس اي محب اخيه فهكماً لانه كان يبغي اخوته وكان ملتفتاً لتوسيع دائرة العلوم والفنون وانواع الصنائع وقد اكثر من تحصيل الكتب وجمع منها عدداً كثيراً اضافها الى المكتبة التي انشأها ابوه وفي السنة العاشرة من ملكه اطلق اسرى اليهود من مصر ورد الاواني الذهبية الى بيت المقدس وحياهم بانية من الذهب مرصعة بانواع المجواهر الثمينة عليها صورة ارض مصر والنيل وامرهم بتعليقها في مسجد الهيكل . وكانت اللغة اليونانية في ايامه قد امتدت الى اقاصي ممالك الارض فامر بترجمة التوراة العبرانية الى اللغة اليونانية لمنفعة اليهود القاطنين بمصر الذين لم يفهموا اللغة العبرانية وكانوا كثيري العدد لان زهوة بلاد مصر جلبتهم الى هناك وسميت الترجمة المشار اليها الترجمة السبعينية لان مترجميها كانوا سبعين نفرًا وكان قد امر الكاهن مانيثو المصري بتأليف تاريخ مصر باللغة اليونانية فجمع هذا المؤلف تاريخاً من الدفاتر الرسمية والاوراق القديمة المخطوطة في الهياكل والمعابد المصرية . وقد ورث هذا الملك من ابيه ممالك كثيرة غير الديار المصرية كمملكة القديوان وسواحل بر الشام وبلاد العرب وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم فاقنعت بها ولم يطمع في الحروب والفتوحات كباقي الملوك بل اقتصر على محافظة مملكه وانعكف على اعمال ومقاصد جسيمة ذات منافع وفوائد كاستكشاف طرق البحار بالاسفار والوقوف على حقيقة

منيع النيل وإرسل سفناً أيضاً لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السودانية وخلف بطليموس الثاني ابنه بطليموس الثالث الملقب الكريم وكان ابتداء حكمه سنة ٢٤٦ ق م وأنبغ خطوات أبيه وجده فسماه شعبه أورجينيس أبي المحسن إلى شعبه وكان كثير الحروب والتفوحات وامتد حكمه إلى نهر الفرات والجزيرة والعراق وإلى أقليمي خوزستان وأذربيجان وهو الذي أرجع الألفه المصرية التي كان كمينز قد أخذها من مصر وفي أثناء حروبه لانتيوخوس ملك سورية نذرت زوجته برنيقي نذراً وهو أنه عند رجوع زوجها من غزواته تقب شعر رأسها للزهرة فلما رجع ظافراً غائماً وفث نذرها فجزت شعرها ووضعت في هيكل الزهرة إلا أنه لم يمض إلا زمان يسير حتى فقد من الهيكل فخاف الحراس من جراء ذلك على نفوسهم من الملك واستعظمو هذا الأمر. ولما بلغ الملك الخبر استشاط غضباً وأمر بإحضار الحراس إليه عازماً على قتلهم فدخل عليه بعض المنجمين وكان متندماً في بابه وقال له قد بلغني فقد شعر الملكة من الهيكل وأنت إليك لاءالك حذرة هذا الأمر وهو أن الزهرة قد نقلت شعر الملكة إلى السماء ووضعت بين النجوم فلما سمع الملك كلامه سر بذلك وصح عن ذنب الحراس. ومن ثم حسب شعر الملكة برنيقي من جملة صور النجوم. وكانت وفاة الملك المذكور سنة ٢٢٢ ق م

أما بطليموس الرابع وهو ابن الثالث المسمى فيلوباتر أي محب أبيه فحكم من سنة ٢٢٢ إلى سنة ٢٠٥ ق م وكان قاسياً دمويّاً محباً للبدخ محاطاً باتباع وحواش خداعين مملتين ومن جملة قبائحهم أنه أثار اضطهاداً شديداً على اليهود في جميع مملكته وقتل أرسينوي وهي أخته وزوجته معاً ثم مات محنقاً مردولاً من جميع رعيته. وخلفه ابنه بطليموس الخامس الملقب إيفانيس ومعناه الماجد حكم من سنة ٢٠٥ إلى سنة ١٨١ وسار سيرة أبيه في المظالم والعدوان وأرتكب من المآثم والقبائح ما ليس للناس طاقة على احتماله وقيل أنه مثل يوماً من ابن تدفع أجور العساكر فاجاب كيف تخاطبونني بهذا السؤال أما تعلمون أن

أموال أحببنا في أموالنا واستمر على فظائمه وقبائحهم إلى أن مات مسموماً .
وهكذا ما زال هؤلاء الملوك يتولون الملك الواحد بعد الآخر حتى قامت
الملكة كليوباترا الشهيرة بالجمال والقبائح

وكانت الملكة المذكورة قد تزوجت أخاها بطليموس ديونيسيوس في
سن السبع عشرة سنة وهو في سن الثلاث عشرة وذلك سنة ٥٦ ق م . وكانت
قد صممت أن تقبض على زمام السلطنة وتستغل بنفسها فلم يوافقها على ذلك
الذين اقبلوا أوصياء على زوجها فقاوموها وابتدوها فالتجأت إلى أوغسطس
قيصر الروماني فتظاهر في القضية كمصلحٍ بينها وبين زوجها . وسنة ٤٧
ق م تزوجت أخاها الثاني ولم يكن قد أتى عليه إحدى عشرة سنة من العمر
فاقيم ملكاً على مصر بامر قيصر أربع سنين ثم مات مسموماً على ما قيل . وإذا
كان للرومانيين نوع من السلطة الأدبية على البلاد المصرية بحسب وصية
إسكندر الثاني وهو الملك العاشر من الدولة البطلموسية بأن تكون مصر
ملحقة برومية بشرط أن تكون ملوكها منها . فبعد توفي أوغسطس المذكور
استدعى كليوباترا القائد انطونيوس أحد الشركاء في الدولة الرومانية أن
توافيه إلى طرسوس حيث كان مزمعاً أن يذهب لمحاربة بروتوس الروماني .
فاجابته إلى ذلك وسارت قاصدة تلك الأطراف حتى وصلت إلى أياالة صالفة
ومن هناك ركبت نهر كراسو وهو نهر طرسوس واجتازت النهر في سفينة
مذهبة أرجوانية الفلاع والإستار وكانت الملكة مزينة بأفخر ما عندها من
الثياب الثمينة والجواهر النفيسة ومعطرة بأنواع العطور الذكية فكانت أمواج
النهر تموج طرباً بالنسيم على نغمت العود والدفوف والقيثير وروائح العطر
والبحور تعبق وتفوح منها إلى سائر النواحي حتى امتلأت شواطئ النهر من رباها .
ولما اجتمع انطونيوس بها تعجب من فرط حسنها وجمالها فادخلها إلى محله الملكي
وكان قد هيأ لها من الوجبة الفاخرة ما بكل عن وصفه اللسان ومن ذلك
الوقت أخذ حبا منها كل ما أخذ حتى سلبت عقله وأخذت بجميع قلبه بحيث

لم يعد له صبرٌ على مفارقتها فاقامت معه اياماً وبعد ذلك جلبته معها الى الاسكندرية وهناك تزوجته . واذ كان لا يستطيع مفارقتها ولا يقدر ان يتخلص من اسرها لها نسي وظيفته والقيام بمأموريته

وكان لانطونيوس زوجة اخرى يقال لها اوكافية وهي اخت القائد اوكتافيوس شريك انطونيوس في الرياسة الرومانية فلما تزوج كليوباترا حصل الشقاق والاختلاف بين القائدين . فاستعد اوكتافيوس لمناومة انطونيوس والانتقام منه ففصد الديار المصرية بمجنود كثيرة فافتتحها بعد حروب هائلة بطول شرحها . ولما شعر انطونيوس بالغلبة طعن نفسه بخنجر فمات . واما كليوباترا فبعد ان افرغت جهدها في ان تسلب عقل اوكتافيوس وتاسره مجبها لها ولم تنجح صمت النية على قتل نفسها خوفاً من ان تبيت اسيرة فيذهب بها الى رومية في حالة الذل والهوان فامانت نفسها شرمية . وقد اختلف المؤرخون في طريقة قتلها فمنهم من زعم انها شربت سمًا وقال اخرون انها كانت احضرت ثعباناً صغيراً ساماً اخنته في وعاء لوقت الحاجة فلما كان ذلك اليوم جلست على سرير ملكها ووضعت تاجها على راسها وعلبها ثيابها وزينتها وفرقت خدما وجواربها ثم فتحت الوعاء الذي كان فيه الثعبان ووضعت على ثديها فلتسها فانت من وقتها وساعتها وانقرض ملك اليونانيين بهلاكها وكان ذلك سنة ٣٠ ق م . وكانت مدة حكم الدولة البطلموسية نحو ٢٩٤ سنة

الباب السادس

في من تولى مصر من اوائل ظهور الاسلام الى الدولة الفاطمية

ولما انقرضت دولة اليونان استولى على مصر الرومان واقامت البلاد

نحت نضرف احكامهم نحو سبع مئة سنة فكانت تحسب ولاية من الولايات الرومانية حتي استفتحها عمر بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٠ للميلاد واقام بها عمر المذكور واليا ٧ سنين ثم عزل في خلافة عثمان بن عفان وتولى بعده عبد الله بن ابي السرح ثم غيره من العمال الى ان انتهت الخلافة الاسلامية الى بني امية فكانوا يرسلون لها عمالا من طرفهم مدة خلافتهم وكان جملة من تولى بالنيابة عنهم بمصر ستة وعشرين نفرا في مدة مئة واحد عشر سنة . وكانوا يسمون عمال خراج مصر وقيم الواحد منهم اشهرًا ثم يعزل ويتولى غيره . ثم جاءت بعدهم الدولة العباسية واستمرت مصر تابعة لها الى سنة ٨٦٨ حينما قام فيها احمد بن طولون وتغلب عليها وصار سلطانا وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنة وشهرين وخلفته ذريته من بعده واستمر الحكم في ايديهم ٢٧ سنة وهي المعروفة بالدولة الطولونية . ثم عادت نيابة العباسية بمصر في خلافة المكنفي فتولى منهم احد عشر نفرا . وجاءت بعدهم الدولة الاخشيدية التي منها كافور الاخشيدي وكان حبشيا اسمر اللون تسلطن سنة ٩٦٥ فاقام ستين واربعة اشهر وخلفه بالملك ابو الفوارس احمد بن علي بن الاخشيد فاقام سنة واحدة وبه انقرضت الدولة الاخشيدية ثم جاءت بعدهم الدولة الفاطمية ونذكر شيئا من اخبار ماوكها على وجه الاختصار

الباب السابع

في الدولة الفاطمية

عدد خلفاء هذه الدولة اربعة عشر كما مر بيانه في جدول الخلفاء عند الكلام على دول العرب فمنهم ثلاثة ظهوروا وماتوا في بلاد المغرب واحد عشر بمصر . واول هؤلاء هو المعز لدين الله بن المهدي عبيد الله المغربي تولى

احكام الغرب بعد موت ابيه المنصور سنة ٩٥٣ للمسيح ثم استفتح الديار المصرية واستخلصها من الدولة الاخشيدية سنة ٩٦٧ بواسطة قائده جوهر الصقلي الذي بنى فيها مدينة افاهرة بامر المعز فدخلها المذكور سنة ٩٧١ ومن ذلك الوقت صارت بلاد مصر والغرب مملكة واحدة

وفي نسب هذه العائلة اقوال كثيرة فمن الناس من رفع نسبهم الى فاطمة بنت الرسول ومنهم الى حسين بن محمد القداح وكان القداح رجلاً مجوسياً وإخباره معروفة ومعلومة عند أكثر المورخين . وكان المعز عادلاً منصفاً في الرعية غير انه كان شيعياً وامتد حكمه من حلب الى بلاد المغرب الى مكة كما امتدت احكام الخلفاء العباسية في ايامه من بغداد وسائر ممالك المشرق الى العراق واعمالها واستمر المعز بالخلافة نحو اربع سنين ثم توفي سنة ٩٧٥ للمسيح ومن هولاء الخلفاء الحاكم بامر الله وهو الخليفة الثالث من بني عبيد بمصر بويح بالخلافة بعد موت ابيه العزيز سنة ٩٩٦ وكان في اول امره غاضلاً عادلاً مستقيم الاحوال ثم تغيرت اطواره وزاد في الظلم والجور في حق الرعية وصار يامر باشياء تفحك منها الناس فمنها انه اجاز يوماً بحمام الذهب فسمع فيها ضجيج النساء فامر ان يسد عليهن باب الحمام فسدوه عليهن حتى متن في الحمام كلهن . ومنها انه امر ان لا يبيع احد زيبياً ولا غنياً ثم امر بحرق الكروم وقطاعها فطاع منها شيء كثير ثم نبى الناس عن اكل الملوخية والزرع وعطّل ذلك بان معاوية بن ابي سفيان كان يميل الى الملوخية وان عائشة بنت ابي بكر كانت تميل الى الزرع . ثم انه امر بقتل الكلاب فقتل نحو ٣٠ الف كلب في يوم واحد . وكان قد امر النصارى بلبس الازرق واليهود بلبس الاصفر وكانوا قبل ذلك في زي واحد يلبسون المازر العسائية ثم اسكن اليهود في حارة زويلة ونهدهم بالنبل ان لم يدخلوا في الاسلام فحافوا منه واسلم منهم عدد غفير ثم امرهم بالرجوع الى اديانهم فارتد منهم في يوم واحد سبعة الاف نفر ثم امر بهدم معابدهم ثم امر باعادتها لهم . ومن اعماله القبيحة انه امر بقتل العلماء

والادباء ثم ادعى الالهة وكتب له باسم الحاكم الرحمن الرحيم وكان الجهال اذا راوه يقولون له يا واحد يا احد يا محيي يا مميت ثم ادعى علم الغيب فكان يقول ان فلاناً قال في يتيه كذا وكذا واكل كذا وكذا ودخل له كذا وكذا وكانت ذلك باتفاق اعتده مع العجائز اللواتي كنَّ يدخلن الى بيوت الامراء وغيرهم ويخبرنه بما جرى . وكان هو واسلافه يدعون الشرف ويقولون انهم من ذرية علي بن ابي طالب وفاطمة بنت النبي وكان الحاكم بامر الله يذكر ذلك كثيراً على المنبر في كل جمعة . وكان قد امر الرعية انه عند ما يذكر الخطيب اسمة على المنبر تقوم الناس صفوفاً اعظاماً للذكر واحتراماً لاسمه واصدر امراً الى سائر نوابه في المملكة ان تفعل هكذا حتى في مكة ايضاً وكان اكثر الناس في مصر اذا راوه خرّوا وسجدوا . فلما طال الامر على الناس وتزايد جورُهُ في حتى الرعية اخذت اخيه سيدة الملك في تدير الحيلة على قتله وكانت من اذكي واعقل نساء عصرها وكان الحاكم كثيراً ما يهددها بالقتل فخرجت في بعض الليالي وابت الى دار الامير سيف الدين بن دواس فاخلفت به واعلمته بنفسها وقالت له انت تعلم ما يجري من اخي في سفك الدماء وخراب البلاد وقد صم على قتلك وقتلي قال وما الحيلة في امره فقالت الراي عندي ان ترسل له غلماناً يقتلوه عند خروجه الى جبل المقطم فانه كثيراً ما ينفرد بنفسه هناك واذا قتل تكون انت المدبر لدولة والده ووزيره فانفقا على ذلك ومضت سيدة الملك الى قصرها وفي الغد خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه في الجبل المذكور فبعده ابن دواس الى عشرة من اعييد السود واعطى كل واحد منهم خمس مئة دينار واعلمهم كيف يقتلونه فساروا من وثقتهم واختلوا في تلك النواحي حتى ابصروه مقبلاً وحده وليس معه احد فجهموا عليه وقتلوه وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة وشهراً واحداً ومن العجب ان في هذه الايام قوماً يعتقدون انه حي ويحلفون بغيبته ويزعمون انه لا بد ان يظهر مرة ثانية ويدب العالم

وفي ايام المستنصر بالله وهو الخامس من خلفاء هذه الدولة حدثت المجاعة العظيمة التي لم يسع بمثلها من قديم الزمان حتى اكل الناس بعضهم بعضاً فكان الكلب يباع بخمسة دنائير والقط بثلاثة دنائير واشتد الغلا وعظم البلا على الناس حتى صودف احياناً ان الكلاب كانت تدخل الدور وتاكل الاطفال وهم في المهود وآبائهم وامهاتهم ينظرون اليهم ولا يستطيعون النهوض لانقاذهم من شدة الجوع وكان الرجل احياناً يسرق ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه . وكان في مصر حارة بها عشرون داراً كل دار يساوي ثمنها نحو الف دينار قيل انها بيعت كلها بطبق خبز فدعيت من ذلك اليوم بحارة الطبق . وخرجت امرأة ذات يوم الى السوق ويدها عند من الجوهر فقالت من ياخذ مني هذا العقد ويعطيني عوضه فحماً فلم يجد من ياخذ منها ثم التفت الى العقد وقالت اذا كنت لا تنفعني وقت الحاجة فلا حاجة لي فيك والته على الارض غضباً وانصرفت . ويقال ان الوزير ركب بغلته يوماً واتي الى دار الخلافة فلما نزل عنها اخذها غلامته واكلوها . وكان الرجل يمشي من جامع طولون الى باب زويلة ولا يرى في وجهه انساناً الا نادراً . واقام المستنصر في الخلافة الى ان مات وكانت مدة خلافته ستين سنة واربعة اشهر ولا يعلم في الاسلام خليفة ولا سلطان تولى هذه المدة غيره . واستمرت ملوكهم تتناوب المالك واحداً بعد آخر حتى انقرضت دولتهم في زمن العاضد بالله سنة ١١٧١ للميلاد وهو آخر ملوكهم حين ظهرت الدولة الابوية الكردية فتكون مدة الخلافة الفاطمية المصرية ٢٠٥ سنوات

الباب الثامن

في الدولة الايوبية

ان اصل هذه الطائفة من بلاد اذربيجان بنواحي الكرج وهم اكراد

كانوا في خدمة محمود بن زنكي صاحب الديار الشامية فارسلهم الى مصر في بعض اشغال له فاقاموا بها مدة وقويت شوكتهم هناك واحببهم الناس نظراً لوداعتهم وحسن سلوكهم ولما استقامت امورهم وامتدت صولتهم قتلوا وزير العاضد بالله باتفاق الاهالي وتولى منصب الوزارة منهم اسد الدين شيركوه اخو ابوب ابن عم صلاح الدين فقام بالوزارة نحو شهرين ثم مات واستوزر بعده صلاح الدين ولما تمكن بالوزارة قطع اسم العاضد من الخطبة بمصر واعمالها واستقل بولاية الاحكام سنة ١١٧١ فمات العاضد غمّاً وقهرّاً ودانت بعد ذلك لصلاح الدين احكام الديار المصرية وانفرد بملكها ثم استولى على الديار الشامية واخذ القدس من الافرنج . وكان رجلاً شديداً الباس عالي الهمة مسعوداً في حروبه ومغازيه وهو الذي بنى قلعة الجبل واقام سور القاهرة وكان في ايام الخلفاء الفاطميين مبنياً باللبن وازال جند مصر من العيد والصفالبة والروم والارمن وشنارة العرب وغيرهم من الطوائف التي كانت في الزمن القديم واستخدم عدة عساكر من الاكراد والترك وبالجمله لم تر مصر في ملوك الاسلاميه قبلة مثله في الشهرة والتوحات وكانت مدة سلطنته ثلاثاً وعشرين سنة . ومن سلاطين هذه الدولة الملك العادل سيف الدين اخو الملك صلاح الدين وكان في ايام اخيه صلاح الدين قد استولى على عدة ولايات وطالت ايامه في السعادة الى ان ملك الديار المصرية وهو الرابع من ملوك مصر من بني ايوب ومن الحوادث في ايامه انه جاء وباء عظيم بمصر سنة ١٢٠٠ وهلك خلق كثير من الاغنياء والفقراء وجاء عقيب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع في البلاد ورحل كثير من الاهالي الى الشرق والغرب وكان الفقراء يأكلون لحوم الكلاب والحيوانات وينبشون القبور ويأكلون جيف الاموات واتصل امرهم اخيراً الى خطف الاطفال في الاسواق ويقال ان امراة دخلت ويشوونهم ويأكلونهم جهاراً في الاسواق والشوارع ويقال ان امراة دخلت يوماً على الملك وهي خائفة مرتعشة فسالها عن حالها فقالت اعلم يا مولاي اني

قابلة وان فوراً استدعوني في هذا الصباح لا ولد امرأة فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لي صحناً فيه طعام كثير اللحم غير انه لا يشبه اللحم المهود فانكرته ولم تقبل نفسي عليه ثم وجدت بنتاً صغيرة هناك فاخليت بها وساليتها عن ذلك اللحم فقالت البنت ان فلانة السبيبة دخلت لتزورنا فذبحها ابي وها هي معلقة ارباً في هذه الخزانة فاقشعر جسي من هذا الخبر وجئت في الحال الى تلك الخزانة وفتحها على حين غفلة فوجدتها مملوءة من لحم تلك المرأة التي ذكرتها لي البنت فاحتلت حتي خرجت من تلك الدار وجئت اليك لاعلمك بذلك وهذه قصتي فتعجب سيف الدين من كلامها وارسل معها من هم على تلك الدار واخذ من فيها وهرب صاحب المنزل وفي غنماً حتي اصلى امره مع محافظ المدينة بدفع ثلاث مئة دينار فدية عن نفسه

وكان كثير من الذين اعنادوا اكل لحم بني آدم يصيدون الناس باصناف الحيل والخادعة فكانوا يستجلبونهم الى بيوتهم بانواع الملاعب فيذبحونهم ويأكلونهم فوقع مرة في اشراك هؤلاء القوم ثلاثة من مشاهير الاطباء احدهم خرج معهم ولم يرجع واما الثاني فان امرأة اعطته درهمن على ان يذهب معها الى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت به في الازقة ومضايق الطرق استفاق على نفسه وعلم بالحيلة فخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتمها فتركته وهربت واما الثالث فان رجلاً استدعاه الى زيارة مريض واطعمه بالاجرة فذهب معه وما زال يسير به من مكان الى مكان حتى ادخله داراً خربة فارتاب الطبيب منه وتوقف في وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج اليه رفيقه وهو يقول له هل مع هذه العاقبة حصلت على صيد ينفع فخاف الطبيب عند سماعه هذا الكلام وخفق قلبه وايقن بالهلاك وكان في حائط ذلك الدرج كوة تشرف على اسطبل فالتى نفسه منها فجاء في وسط الاسطبل فقام اليه صاحب الاسطبل وقال له من انت ومن تكون فخاف خوفاً شديداً وكم امره عنه خوفاً منه ايضاً فقال له الرجل صاحب الاسطبل لا تخف قد

علمت حالك فاني نيقنت ان اهل هذا المتزل يذبحون الناس بالاحتيال
والخداع والحمد لله على سلامتك ثم اخرجته من ذلك المكان وسار معه حتى
اوصلته الى السوق ولولا هذا الاتفاق لهلك واقطع خبره . وكانت مدة سلطنة
الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة

ثم تولى بعده ابنه الملك الكامل محمد وكان جليلاً مهيئاً وهو صاحب
الغزوات الكثيرة مع الطوائف الصليبية بشجر دماط وكان الافرنج لما استولوا
على دمياط ونواحيها قد حصنوا اسوارها وشيدوا حصونها وابراجها خوفاً من
هجوم المسلمين فارسل هذا الملك الكتب والرسائل الى سائر النواحي والاطراف
ببحث الاسلام وينهض غيرتهم الى الحضور لدفع الافرنج عن البلاد ونادى في
القاهرة بالنفير العام فاجتمع اليه بصر شعوب كثيرة من جميع الجهات بنوف
عدهم على مئة وخمسين الف مقاتل فرحف بهذه الجموع ونزل فجاه المنصورة
فالتقت الافرنج وجرى بين الفريقين من القتال ما لا يسمع هذا المختصر بيانه
فانهزم الافرنج وارتدوا الى دمياط وحاصروا فيها وكانوا قد حصنوا على
الرحيل فارسل الملك الكامل يقول لملك الافرنج ارسل لنا رهائن منكم حتى
نكف عن قتالكم بشرط ان ترحلوا من البلاد ونحن ايضا نرسل لكم رهائن
لتكونوا مطمئنين من غوائتنا عند التسليم فارسل له ملك الافرنج عشرين سيداً
وارسل الملك الكامل ابنه صالح نجم الدين مع جماعة من الامراء الى ملك
الافرنج فعند ذلك سلمت الافرنج دمياط الى المسلمين واطلق كل من
الفريقين ما عنده من الاسرى

واستمرت هذه الدولة الى سنة ١٢٥٠ مسيحية وعدد ملوكها تسعة انفار اولهم
الملك صلاح الدين المذكور آنفاً واخبرهم الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح
الايوبي وكانت هذه الملكة نادرة زمانها ذات عقل وحزم ومعرفة بسياسة
الاحكام فتمسلطنة لحسن سيرتها وجودة تديرها وكان وزيرها والقائم بتدبير
احوالها الامير معز ايك التركاني ولا يعلم في المسلمين امرأة ارتقت الى سرير

الملك غيرها فاقامت بالسلطنة مدة ثلاثة اشهر ثم خلعت نفسها عن تخت المملكة وتزوجت بالامير ايك المذكور واقامته مائتا مكانها وهو اول ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية

الباب التاسع

في الدولة الجركسية احدى فروع الدولة التركية

كانت بداية هذه الدولة من سنة ١٢٥٠ واستمرت الى سنة ١٥١٧ وعة ملوكها سبعة واربعون اولهم الملك المعز ايك المذكور واخرهم الملك الاشرف طومان باي وكانوا يلقبون بممالك الدولة الايوبية الكردية ليمتازوا عن الممالك الجركسية وكان الملك الصالح الايوبي قد اصطفاهم لخدمته فكان لهم التقدم والامتياز في ايامه وهو ايضا الذي انشا الممالك الجركسية الذين تقلدوا زمام احكام مصر بامر الدولة العثمانية بعد هذه الدولة كما سيأتي خبرهم واسكنهم بالقلعة التي كانت بالروضة على نهر النيل وكان عددهم نحو الف مملوك وكان لهم مساح على شطوط النهر مشحونة بالعدد والسلاح ومهات الحرب ولهذا كانوا يسمون بالممالك الجركسية

ومن اشهر ملوك الدولة الجركسية الملك الظاهر بيبرس تولى زمام الملك سنة ١٢٧٧ كان شجاعا متدائما كثير المعازي والغارات متصفا بالفراسة وحسن التدبير وفي ايامه كانت اكثر سواحل الديار الشامية في ايدي الصليبيين فسار اليهم وحاربهم واستخلص منهم مدنا كثيرة بعد ان مكثت الحرب بينهم مدة طويلة واستمرت احكام القطر المصري تحت تصرف هذه الدولة الى زمن

السلطان سليم الاول بن بايزيد العثماني فاستخلصها منها سنة ١٥١٧ ومن ثم صارت تحت حكم دولة آل عثمان فكانت ترسل اليها النواب والمحكام الى سنة ١٧٦٥ في ايام السلطان مصطفى الثالث فانه قطع من مصر الحكومة الباشاوية وولاهها للمالك البحرية المتقدم ذكرهم بشرط ان يجمعوا الاموال السلطانية وما بقي منها بعد المصاريف الميرية يرسل نصفه في كل عام الى الاسكندرية والنصف الثاني يرسم المالك على سبيل الرواتب واقام بينهم نائبا من وزرائه لاجراء اوامره في تلك الاطراف . وكان بكوات المالك يصرفون المال على انفسهم ويدعون انهم صرفوه على التصلحات والتربيات ويرسلون في كل سنة دفتر المصاريف للدولة مسدداً عن يد الوزير المذكور الذي لم يكن في مصر الا على سبيل الصورة . وكان حكمهم قاسياً جافياً من غير قاعدة يظلمون الرعية ولا يبالون بنجاح البلاد وكان كبيرهم المعتمد عليه يسكن مدينة القاهرة ويلقب بشيخ البلد . ثم انهم عصبوا بعد ذلك وتمردوا وخرجوا على الدولة في زمن السلطان سليم الثالث واستمروا في العصيان والظلم والطغيان الى سنة ١٧٩٨ حين حضر نابليون بوناپارتي باربعين الفا من الجيوش الفرنسية الى مصر فحاربهم وقهرهم وفرقهم في اقطار الصعيد وانجاز واستمرت احكام البلاد في قبضة يده مدة ثلاث سنوات الى ان استخلصها الدولة العثمانية بمحاربة وانكلترا سنة ١٨٠١ واقامت عليها والياً حسب الايام السابقة وبقيت على تلك الحالة نحو ثلاث سنين حتى تولى عليها محمد علي باشا

الباب العاشر

في العائلة المحمدية العلوية وهي الخديوية المصرية

ان راس هذه العائلة هو محمد علي باشا واصله من مدينة قواله من



محمد علي پاشا خديوي مصر

بلاد الارناوط جاء الى مصر مع العساكر السلطانية الذين حضروا من بلاد
الترك لمحاربة الفرنسيين فقاتل مع من قاتل واشتهر بالشجاعة في تلك
الحروب حتى ارتقى في مدة قصيرة الى رتبة قائم مقام ثم ساعدته الاقدار الى ان
نقله زمام احكام الديار المصرية سنة ١٨٠٤ فضرب عليه مال معلوم بدفعه في
كل سنة الى الباب العالي . ولما تمكنت احكامه في تلك الاطراف سار السيرة
المرضية وعُدل في الرعية وبدا في العمار ونظام الملكة وجلب اليها الضباط
الفرنساوية لاجل ترتيب التعليمات العسكرية وبنى السفن الحربية واصلح احوالها
وسير الأمن والامان في كل مكان ورفع فيها اعلام المعارف والعلوم وتفرغ الى
تقدمها حتى اخرجها من ذلك الظلام وصارت تعد اقليتها من البلاد الافرنجية .
وكان هذا الخديوي مع علو شأنه ورفعة مقامه انيساً وحليماً حسن التدبير
بصبراً بعواقب الامور مقتصداً في تدبير مصاريف حكمته وكان له هبة عظيمة
في قلوب الناس حتى لم يحسر احد ان يهرك ادنى حركة بخلاف الحق
والاستقامة ولذلك لم يكن احد من جنوده يتجاسر ان يتعدى على احد فانتشر
العدل والامان في ايامه ورأت الناس من احكامه ما لم تره ولم تسمع به . وكان
قد افتتح الديار الشامية عن يد ابنه ابراهيم باشا الشجاع المشهور بسبب سوء
نصرف عبد الله باشا والي عكا وكثرة جوره وظلمه للاهلين واستمرت احكامها
في قبضة يده من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٤٠ حين حضرت العساكر العثمانية
والبورج الانكليزية واستخلصتها منه . ومن اعماله العظيمة انه افتتح بلاد
السودان وضماها الى بلاد مصر بعد ان اقام فيها الحكم والولاية وبهذه الوسطة
افتتح باب التجارة للخاص والعام وزادت اسباب الثروة وافتتح باب لدخول
المدن والدور بين تلك القبائل . وصرف محمد علي باقي عمره بالغز والحجاء الى
ان جاوز الثمانين من عمره فاعتره مرض سوداوي فتنازل عن معاطاة
الاحكام ثم مات بعد سنة وكانت مدة حكمه نحو خمس واربعين سنة
وتولى مكانه بعد تنازله ابنه ابراهيم باشا سنة ١٨٤٨ وكان عالي الهبة شديد

الباس مستكملاً جميع الصفات الحربية والسياسة . وفي ايام ابيه كان قائد
الجيش المصرية واليه يرجع تدبير امورها فسلك مسلك ابيه واحسن المعاملة
بين الرعايا . وكانت مدة ولايته الديار المصرية احد عشر شهراً وتوفي بداء
الاسهال في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٤٨ وهو ابن ٦٢ سنة
وتولى بعده ابن اخيه عباس باشا فاقام بالولاية نحو خمس سنين وهو الذي
شرع بانشاء التلغراف والطريق الحديدية من مصر الى الاسكندرية . ثم تولى
بعده عمه محمد سعيد باشا سنة ١٨٥٤ فكان جواداً كريماً وهو الذي انشأ
طريق المنشية وغرس فيها الاشجار وجعلها من احسن المنتزهات . وكان قد
شرع بوصل البحر الاحمر ببحر الروم بواسطة شراكة فرنساوية سنة ١٨٦٠ غير
ان هذا العمل المهم لم ينجز الا في ايام خلفه سنة ١٨٦٩ وكانت مدة ولايته نحو
تسع سنين

اما انشاء ترعة السويس فقد حسب من اعظم اعمال العصر ومن اكبر
الفوائد للتجارة لانه قصر المسافة من اوربا الى الهند نحو ٢٧٥٠ ميلاً وسهل
الاتصال بين الغرب والشرق حتي صار ممكناً للانسان ان يدور حول الارض
في مدة ٨٠ يوماً . اما طول تلك الترعة من السويس الى بورت سعيد فهو
٨٨ ميلاً وبلغت نفقتها نحو ١٠ ملايين ليرة انكليزية والآن اي في سنة ١٨٨٥
قد قراري اصحاب الاسهم على توسيع تلك الترعة لاجل سرعة سير السفن فيها
والمظنون انه سيصير الشروع في ذلك حالاً

ثم تولى بعده ابن اخيه اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا جلس على سرير القاهرة
في ١٨ ك ٢ سنة ١٨٦٢ وعند انفراده بالحكومة بذل جهده في تحسين البلاد
واصلاحها ومن جملة مشروعاته الخيرية ابصال التلغراف والطرق الحديدية الى
بلاد السودان وادخال مجاري المياه لمصر واقامة المنارات في البحر الاحمر
لوقاية السفن من الاخطار واصلاح الطرق والترع وتأسيس معامل الورق
والسكر وهو الذي بنى مدينة الاسماعيلية وانشأ بها البساتين والقصور الجميلة .

وفي أيامه صار فتح ترعة السويس المار ذكرها فاستدعى من الاقطار الافرنجية جميع الملوك والعظماء لمشاهدة نجاز هذا العمل واعد لهم كل ما يلزم من مزيد الاحترام والاعتبار فحضر بعضهم الى دعوة حضرته والذي لم يتمكن الحضور ارسل احد نوابه مكانه فاستقبلهم احسن استقبال وكان قد اعد لهم وليمة عظيمة فانشرحت صدورهم بما شاهدوه من حسن ترتيبه ونظامه . ومن اعماله المستحقة الذكر انه ارسل السار صوثيل باكر القائد الانكليزي الى اواسط افريقية في فرقتين من العساكر المصرية والوف من البغال والجمال لاكتشاف اراضيها الشاسعة ولكي يخضع كل القبائل المتوحشة لافتحا طريق التجارة ولا يظال الانجار بالعبيد وهو الذي اقام مجالس مختلطة في القطر للقضاء والحكم في الدعاوي التي بين الاجانب والرايا . ومن اعماله ايضا انه قرّر وراثه الحكم من بعده في عائلته المختصة اي لابنه البكر ثم لابن ابنه حسب الطريقة الاوربية خلافاً للطريقة التي كانت جارية وفي انتقال الارث للاكبر في العائلة ولكن كل تلك الاصلاحات والتحسينات لم توازي الاضرار التي نتجت من سوء صنيعه باستقراض الاموال من الافرنج وتكثير الديون على الحكومة باريح باهظة حتى بلغ الفائض السنوي في وقت ما على الاوراق المالية المصرية ٢٥ في المئة . اما المبلغ الذي اقترضه في مدة ١٢ سنة من حكمه فبلغ مع فائض تسعين مليون ليرة انكليزية وفائضه السنوي اربعة ملايين وخمس مئة الف ليرة انكليزية وهو نحو نصف ايراد المملكة . واذ لم يعد في مقدرة الحكومة القيام بايفاء ما يطلب منها خوفاً من ازدياد الشراو في اسماعيل باشا مطلق التصرف على المالية المصرية اتفقت دول اوربا على نزع تلك السلطة من يده واقامة معتمدين اوربيين لاجل مراقبة المالية وحصر الابرار والخرج فوق الانتخاب على رجل انكليزي ورجل فرنساوي كنواب الامتين صاحبي الدين الاكثر فاستلما زمام المالية وقاما باعباء ماموريتها احسن قيام فساء ذلك اسماعيل باشا نظراً لاخطاط سلطته وهبوط قدره وحاول الغاء ذلك الترتيب وتلك المراقبة الاجنبية فلم

يقتنع شيئاً لأنه كان قد تقرر في عقول فرانسأ وانكلترا وغيرها ان
اعادة السلطة اليه تؤدي الى خراب البلاد خراباً كاملاً واذ راوه غير مبال
لمشورائهم ومرغوباتهم ومصرأ على مقاومتهم انتقلوا جميعاً على عزله من منصبه
فاسترحصوا الباب العالي في ذلك وخطوه في بداية سنة ١٨٧٩ ونفوه من
البلاد واقاموا ابنه توفيق باشا مكانه وهو الخديوي الحالي موصوفاً بالزهد
وحسن الطوية محباً لشعبه وخيراً للبلاد

الباب الحادي عشر

في الثورة العرابية ودخول الانكليز بلاد مصر وظهور الثورة
السودانية وذلك مدة ثلاث سنين من اواسط سنة ١٨٨٢
الى اواسط سنة ١٨٨٥

لما كانت قلوب الاهالي امتلأت بغضاً للافرنج بسبب نفوذهم وسيادتهم
واستيلائهم على الوظائف الكبرى والمرتبات العليا اخذت الجرائد الوطنية تلهج
بهذا الامر وتنهض همة الشعب للتخلص من الافرنج والاستقلال في البلاد فاغنم
فرصة ذلك احمد عرابي باشا ناظر الجهادية المصرية وهو مصري الاصل كان
قد ارتقى الى تلك الرتبة العالية بواسطة اجتهاده وعلوه وظهره ونظاير بالعصيان
على الحكومة الخديوية بعد ان كان انحاز اليه القسم الاكبر من قواد العساكر
بسبب انتطاع الحكومة عن صرف مرتباتهم اشهرأ عديدة فجاهر بالتمرد ورفض
الطاعة وتبعه حزب كبير ليس فقط من متوظفي الحكومة بل من الاهالي ايضاً
فكان مقدماً للثورة ورئيسها فهددته دولتا انكلترا وفرنسا وامراته ان يكف
عن غيه وغروره فابي الاستماع وسد آذانه عن مشورات نوابها لا بل انه زاد

أصراراً في عزمه وإظهار استعدادة لمقاومتها فأرسلنا أسطولها إلى ميناء الإسكندرية وتهديدناه بالضرب فأخذ يحصن القلاع ويجهز للدفاع فهاج أوباش المسلمين ضد الأفرنج في مدينة الإسكندرية في ١١ حزيران سنة ١٨٨٢ وقتلوا منهم أكثر من مئة شخص وشاع بين الجميع أن عرابي باشا هو الذي أثار تلك الفتنة ولكنه لم يثبت عليه ذلك بنوع جلي فتعاطم الأمر وكثر الخوف عند الأجانب أوربيين وسوريين سواء وأخذوا يهجرون الديار المصرية ويذهبون إلى أوطانهم فكان عدد الذين ترحلوا نحو ٦٠ ألفاً

ولما كان طمع عرابي باشا لا يزال مزيئاً له المحال في مداومة المقاومة وكانت سياسة أنكلترا تستدعي توقيف الثورة وإعادة السيادة الخديوية كما كانت ليس فقط حفظاً لطريق الهند الذي هو من أهم الأمور عندها ولكن منعاً لدخول جنود الفرنسيين كما كان أشار سابقاً غامباً أحد رجال سياسة فرنسا فتصبح طريق الأنكليز للشرق في قبضة يد دولة قوية كفرنسا اعتمدت الوزارة الأنكليزية على توقيف الثورة بالقوة البحرية ودعت فرنسا إلى مشاركتها في ذلك فابت ولم تقبل . حينئذ أطلق الأسطول الأنكليزي قنابله على قلع الإسكندرية في أواسط شهر تموز من السنة نفسها وفي أقل من ١٢ ساعة هدمها كلها ولجأ عرابي وجماعته إلى الفرار بعد أن أحرقوا قسماً كبيراً من المدينة حيث تسكن الأفرنج والسوريون وتحصن مع جنوده في كفر الدوار . فانزل الأنكليز قسماً من الجنود استلموا زمام المدينة وما مضى ٣٠ يوماً حتى احتشد في الإسكندرية وفي السويس نحو ٢٠ ألفاً من الجنود الأنكليزية تحت قيادة الساركانت ولسلي وإذا رأى المذكور أن مهاجمة الأعداء من جهة كفر الدوار كثيرة الخطر نقل القوات العسكرية إلى الاسماعيلية حيث كانت جيوش الهند محشدة وضرب عرابي وقواته في تل الكبير حيث كان متحصناً مع ثلاثين ألفاً من الجنود فهزموه في ١٤ أيلول وبدد شمل عساكره وسير الجيوش إلى القاهرة فدخلوها في اليوم الثاني واستلموا القلعة وقبضوا على عرابي وجماعته ونادوا بسيادة الخديوي وبعد

ان جاكوم واثبتوا خيانتهم عفو عن قتلهم ونفوسهم الى جزيرة سيلان
 وبينما كانت الثورة العرابية قائمة في مصر نهض رجل من عرب جنوبي
 افريقية اسمه محمد احمد لقب نفسه بالمهدي وجمع حوله جيوشاً من الناس وتقدم
 بهم الى البلاد السودانية التي تحت تسلط خديوية مصر فضرب بعض الاماكن
 وتلكها ونهب اهلها فارسلت الحكومة المصرية عسكرياً تعزيزاً للحامية تلك
 الاماكن تحت قيادة هيكس باشا الانكليزي فكسره المهدي ومزق صفوفهم بعد
 ان قتل منهم عدداً غفيراً وكان من جملة القتلى القائد الانكليزي المشار اليه . ثم
 ان المهدي ارسل فرقة من جنوده الى السودان الشرقية فاستولوا على عدة
 مقاطعات مصرية حتى اقتربوا من سواكن التي هي على شواطئ بحر الاحمر
 فارسلت فرقة جنود من مصر لمقاومتهم تحت قياد باكر باشا الانكليزي ولما
 تقابل الفريقان في ساحة القتال ارتد المصريون الى الوراء منهزمين من غير
 قتال فقتل منهم في ذلك اليوم نحو ثلاثة الاف ولم ينج الا القليلون مع قائدهم
 باكر باشا فعند ذلك تحمست الدولة البريطانية وقاية للمصالح المصرية وجاهرت
 بمقاومة الاعداء فارسلت فرقة تحت رياسة الجنرال كراهام وضربت العرب
 ضربة هائلة وقتلت منهم اكثر من ٦٠٠٠ شخص ثم عادت العساكر الى القاهرة
 بعد ان اقاموا في سواكن حامية كافية لردع المهاجرين

وكانت انكثرا قد اشارت على الحكومة المصرية ان تخلص عن البلاد
 السودانية وتسلمها عن مصر تخفيفاً للمصاريف والمسئولية وقررت على جعل
 تخومها وادي حلفا فاذعنت الى ذلك وقبضته الا انه لما كانت المراكز السودانية
 مملوءة من الحامية المصرية وهي في خطر من هجمات المهدي ولم يكن في استطاعة
 الحكومة ان ترسل جنوداً لانقاذ تلك النقط المتعددة بسبب ارتباكها السياسي
 والمالي وقع الاستحسان على ارسال غوردون باشا الانكليزي الذي كان
 حاكماً سابقاً على السودان على رجاء ان يصلح الاحوال اذا امكن ويحب
 العساكر المصرية من تلك الانحاء فذهب الى الخرطوم وحاصرها نحواً من سنة

ولكنه لم يستطع ان يكبح هياج الاعداء لابلانفوذ ولا بالاثوة فاعتمدت الدولة البريطانية على ارسال جنود انكليزية لانقاذهم من مكان حجره لانه اصبح غير قادر على التخاص فارسلت في خريف سنة ١٨٨٤ عشرة الاف جندي تحت رئاسة الجنرال لورد ولسلي الذي افتتح الديار المصرية سنة ١٨٨٢ ولما وصلوا الى مقربة من الخرطوم فاجأهم جود المهدي والتهم بينهم قتالان شديداً كانت الدائرة فيهما على السود فانهزموا بعد ان قتل منهم نحو خمسة الاف رجل . وبينما كان الانكليز متصرفين وموملين سرعة دخولهم الى الخرطوم وردت اخبار سقوط تلك المدينة ودخول الاعداء اليها وقتلهم الجنرال غوردون فحبطت امانتهم وخابت مساعيهم واشتد الخطب عليهم اذ لم يكن ممكناً لهم استخلاص المدينة في الحال لقلّة عددهم وتكاثر اعدائهم ضمن اسوار تلك المدينة المحصنة

وكان السبب في سقوط الخرطوم خيانة بعض القواد المصريين من كان يركن اليهم غوردون باشا كل الركون واخصهم رجل يقال انه فرج باشا ولم نجد بداً من ذكر اسمه ليكون محفوظاً في التاريخ على توالي القرون وكان غوردون يشد بلسان حاله

كل الامور اذا ضاقت لها فرج . لكن اموري اناها الضيق من فرج . وكان غوردون باشا يعز هذا الرجل لما ظهر له فيه من حسن الاستعداد وفرقاء من درجة الى درجة حتى اوصله الى رتبة الباشاوية وكان يعتمد عليه ويظنه صادقاً مخلصاً بينما كان هو عدواً خائناً يرسل الاعداء سرا ويدبر على تسليم المدينة . ولما تحقق ان الانكليز صاروا على مقربة من الخرطوم وهم فائزون اظهر ما كان مكتوناً وابان ما كان مخفياً وفي ٢٦ من شهر كانون الثاني سنة ١٨٨٥ فتح ابواب المدينة للاعداء بينما كان غوردون باشا مستكناً في قصر الحكومة فدخلوها من غير مانع وعلت اصواتهم وضجائهم في الشوارع وهجموا على المسيحيين والاfrican القاطنين هناك فقتلهم ولما خرج غوردون باشا ليتحقق

سبب ذلك الهياج لافوه باطلاق الرصاص فوقه قتيلاً وهكذا انتهت حياة هذا البطل الشهير

اما الانكليز فلم يعد ممكناً لهم التقدم على الخرطوم لاستغلالها نظراً لفلتهم واذ كان فصل الربيع قد دخل ومياه النيل نقصت لم يبق سبيل لتعزير قوتهم الحربية واستحضار الجيوش من القاهرة على الخصوص لان الحاربة في تلك الديار الحارة في زمن الصيف لا يمكن اتمامها فصمموا حينئذ على توقيف الحرب وتاجيلها الى فصل الخريف القادم فرجعوا الى الورا واخذوا لانفسهم مراكز في جوار دنقلة وطلبوا الامداد من حكومتهم وكان ذلك امراً معيياً

ولما كانت الخطة التي سلكها اللورد ولسلي قائد الجيوش الانكليزية في توجه هذه الحملة عن طريق النيل عوضاً عن طريق سواكن الى بربر هي خطة غير مستقيمة تقرر عدم استوائها قبل معرفة النتيجة عادت الحكومة الانكليزية الى راي العموم الاول وبعثت التجريدة الجديدة عن طريق سواكن فعينت اثني عشر الف مقاتل لهذه الحملة تحت رياسة الجنرال كراهم ليسيروا الى بربر لاطاعة زملائهم في الخريف وشرعت في وضع سكة جديدة بين سواكن وبربر لابدانها تاتي بفوائد كثيرة في المستقبل ولكن في هذه ايضا لم يحصل المرغوب لانه بعد ان حلت الجيوش في سواكن وضربوا الاعداء وابعدهم عن جوار المدينة وشرعوا في وضع السكة الحديدية صدرت لهم اوامر الوزارة بتاركة القتال والعودة والتاهب لمحاربة الروسين في جهة افغانستان والله اعلم بما سيكون

اما سياسة الوزارة الانكليزية في الديار المصرية فكانت خالية من الصواب وبمعزل عن الروية والسداد ولذلك اورثت الامة خسران المال والرجال وجلبت عليها العار والوبال وجعلت الناس ينسبون اليها المكر والدهاء والطع في ضم البلاد الى باقي املاكها مع ان ذلك لم يكن من مقاصدها حسب ما صرحت واوضحت فاذا كان ما قررته هو ما تنويه حقيقة فتكون

ارتكبت افطع الاغلاط ويكون ضربها الاسكندرية ودخولها الفطر وتداخلها
في ادارة الاحكام المحلية وضربها العرب من جهة سواكن اول مرة ثم رجوعها
عنها في الحال وارسالها غوردون باشا الى الخرطوم ثم ارسالها حملة النيل
لاجل تخليصه وضرب سواكن ثاني مرة والشرع في مد السكة الحديد الى
بربر ثم العدول عن ذلك جهلاً صريحاً لا يرتكبه الجهلة من الناس

الفصل الثالث

في تاريخ قرطاجنة

الباب الاول

في وصف قرطاجنة وحروبها مع الرومان من سنة ٨٤٠
الى سنة ٢٦٤ ق م

وكانت قرطاجنة مدينة عظيمة من اشهر مدن افريقية القديمة والحديثة
وكانت مبنية بقرب خليج سمي اخيراً بخليج قرطاجنة نسبة اليها المعروف الآن
بخليج تونس. وكانت في تلك الاعصار تحت كعروس على ما سواها من المدائن
نظراً لابنتها الجميلة ومراحمها العظيمة ومناظرها المبهجة الزهية. وكان السبب
في بنائها انه لما قتل بيكالبون ملك صور رئيس الكهنة اسرباس زوج شقيقته
ديدون طعماً باله وذخائره هربت ديدون المذكورة بعد قتل زوجها من
ظلم اخيها وجوره مع عدد كبير من اكابر بيت ايها واعيان ومعهما ذخائر
واموال بعثها الى نواحي افريقية الواقعة فجاه سيبيليا وانتاعت من اهالي تلك
النواحي ارضاً واسعة واسميت مدينة بالقرب من تونس ودعت اسمها قرطاجنة

اي الجديدة وذلك بمساعدة البعض من اهالي تلك البلاد وغيرهم من الفينيقيين الذين كانوا هناك . ووضعت أسس هذه المدينة على حسب قول بعض المؤرخين سنة ٨٧٨ قبل الميلاد وقال آخرون سنة ٨٤٠ وظن البعض انها بنيت في ايام يواش ملك يهوذا سنة ٨٤٦ وهو اصح الاقوال واشهرها . وكان جارباس احد ملوك تلك الاطراف قد خطب ديدون صاحبة قرطاجنة لنفسه وذلك بعد ما تغلب على مدينتها فابت وامتنعت لانها كانت قد آلت على نفسها ان لا تتزوج برجل على بعلمها المتبول في صور فلما راي عدم ميلها الى الزواج اراد ان يقتصبها قهراً فاضطرها الحال الى ان حرقت نفسها بالنار وانتهت على هذه الصورة . فهذه بداية واصل مملكة قرطاجنة التي صارت فيما بعد من الممالك العظيمة بل بالحري من اقوى واقدر ممالك تلك الازمنة واغناها وقد ارتقت الى اعلى درجة في العظمة والاقدار حتى كادت تهدم بشوكها وسقوطها اركان قواعد الدولة الرومانية كما سياتي بيان ذلك

اما مدينة قرطاجنة فكانت اولاً مدينة تجارية وقد ورث اهاليها من ابائهم محبة التجارة فكانوا منعكفين ومثابرين على الاخذ والعطاء وما زالوا في ازدياد ونمو حتى وصلوا الى درجة ابائهم اهل مدينة صور في الغنى والجاه وفاقوهم بانساع دائرة الحكومة واشتهروا بين الممالك وتكونت منهم دولة عظيمة . وكانت حكومتهم في اول الامر حكومة ملكية ثم تحولت الى حكومة جمهورية تحت رئاسة رجلين من اعضاء المجلس العالي كانا يتصلان المشاكل ويدبران امور الدولة ويجريان الاحكام التي لم يكن يؤذن باجرائها الا بعد مصادقة المجلس الكبير الذي كان مؤلفاً من ثلاث مئة عضو وقيل من ست مئة . اما شعب قرطاجنة فكان مختلف الاجناس غيران اصلهم من فينيقية وما يؤيد ذلك ان لغتهم كانت اشبه باللغة الفينيقية والعبرانية واقرب اليها حتى في الديانة ايضاً وكانوا موصوفين بالطمع وحب المكاسب . وقد انقطعت عنا اخبارهم وتفاصيل احوالهم نظراً لاختلاف ديانتهم وشرائعهم عن اديان وعوائد اليونان

وغيرهم من الامم المجاورة فكانوا يكتبونها عنهم خوفاً من غائلهم لانهم كانوا شعباً غريباً ووحيداً في تلك الجهات ولم يبق لنا من توارخهم الا بعض آثار نفوس وغيرها ومنها نعلم ان تجارهم كانت على نوع ما تجارة صورية وخالصة الكلام فيهم انهم وسعوا تجارهم جداً حتى فاقت تجارة الاسكندرية لكثرة المعادن التي اكتشفها اباؤهم في اسبانيا ووجود المحاصيل الكثيرة فيها وفي البلاد المجاورة لها . وما زال اهل قرطاجنة في نجاح واقبال حتى امتدت سطوتهم الى اكثر شالي افرقية كاقليم تونس وطرابلس الغرب وغيرها من مالك البربر ثم افتتحوا جزائر باليار وجزراً كبيراً من جنوبي اسبانيا وسردينيا وكورسيكا وماطة ثم انتهى بهم الحال الى ان تغلبوا على سبيليا وكان افتتاحهم لهذه الجزيرة سبباً لانتشاب الحروب الهائلة بينهم وبين الرومانيين كما سيأتي خبره

الباب الثاني

في الحروب بين قرطاجنة ورومية من سنة ٢٦٤ ق م الى وقت

خربها الاول سنة ١٤٥ ق م ثم تجديدها ثانية وخربها

الاخير سنة ٦٩٢ بعد المسيح

وكان السبب في انتشاب الحروب بين مملكة قرطاجنة ودولة الرومانيين هو ان قوماً من سكان جنوبي ايطاليا كانوا قد التجأوا الى الرومانيين واستغاثوا بهم على هيرو ملك سرقوسا في سبيليا فانتدب اهل قرطاجنة للنجدة ملك سرقوسا وكان الرومانيون قد ارسلوا جيشاً عظيماً لتلك الاطراف فاتصروا وتغلبوا على جيشي سرقوسا وقرطاجنة معاً . فدخل ملك سرقوسا خوف من اهل قرطاجنة ان تطمع في بلاده وتستولي عليها بعد ذلك فتقطع مع الرومانيين

عهداً املاً انه بمساعدتهم له يطرد جيوش قرطاجنة من اطراف بلاده فاجابه
 الرومانيون الى ذلك ومن ثم ثبت نيران الحرب بين المالكين
 ولم يكن الرومانيون قبل ذلك الوقت قد امتدوا الى خارج ايطاليا ولم
 تكن لهم قوة بحرية اصلاً . وكانت مملكة قرطاجنة يومئذ في زهوة عظيمة وقوة
 بحرية واذ كان الرومانيون لا يستطيعون مقاومة اهل قرطاجنة بدون قوة
 بحرية بنوا نحو مئة سفينة وحاربوا القوم وانتصروا عليهم وغنوا منهم ٥٠٠ مركباً
 ثم زادوا عدد مراكبهم حتى بلغت ٢٠٠ سفينة وانتصروا على القرطاجنيين
 ثانية واستخلصوا منهم ٦٠ مركباً واستولوا على جزيرة كورسيكا وسردينيا . ثم
 تقدموا الى نواحي افريقية ونزلوا على مدينة قرطاجنة تحت رئاسة القنصل
 ريغولوس واقاموا عليها المحصار حتى كادوا يتكونها لولا مساعدة اهل اسبارنة
 الذين قد امدوا اهل قرطاجنة بجيش تحت راية القائد كساتيب فانكسر
 الرومانيون واسر قائدهم ريغولوس فارسله اهل قرطاجنة الى رومية لكي
 يعرض على دولته شروط الصلح . فذهب وعند وصوله الى رومية اقنع الحكومة
 الرومانية بعدم قبول المصالحة وان طلب قرطاجنة هذا صادر عن عجز
 وضعف ثم عاد الى قرطاجنة كي لا يناقض قوله فقتلوه وهكذا انتهت الحرب
 الاولى التي دامت مدة ٢٢ سنة

وكانت مدة الصلح بين الملكين المذكورين نحو ٢٢ سنة وعند نهاية هذه
 المدة قام هنيبال بن هملكار رئيس جيش قرطاجنة في الحرب الاولى وحاصر
 إحدى مدن اسبانيا التي كانت متحيزة مع الرومانيين مدة سبعة اشهر ولما
 اشتد حصارها احرقها اهله بالنار خوفاً من وقوعها في ايدي الاعداء ثم تقدم
 هنيبال المذكور بجيوشه الى داخل البلاد وقطع جبال الالب حتى توصل الى
 شمالي ايطاليا وحارب الرومانيين في وسط بلادهم وانتصر عليهم في جملة وقائع
 وذبج منهم عدداً لا يحصى وقيل انه ارسل اربعة ربوع من خواتم ذهب نزعها
 عن اصابع القتلى . وبقي هنيبال نحو ١٢ سنة في ايطاليا واكتفى لم ينج اخيراً الفجاح

البام نظراً لعدم الامداد . وفي أثناء ذلك جهز الرومانيون جيشاً عرمرماً تحت راية القائد المشهور المدعو شيبو وكان يلقب بالافريكاني فرحف مجنوده واستخلص جميع املاك قرطاجنة في اسبانيا ثم ركب السفن وتقدم الى سواحل قرطاجنة فلما رأى اهلها الاخطار المهددة بهم ارسلوا من فورهم يستدعون القائد هنيبال ان يرجع حالاً لنجدتهم فارتد راجعاً بعد مشقات ومتاعب لاتوصف وكان قد فقد جانباً عظيماً من جيشه في تلك الحروب الخارجية . فالتقى هذان البطلان في مرج واسع من سهول افريقية وشبت بين العسكرين نيران القتال وكانت الدائرة على عساكر قرطاجنة فانهمزمت اقع هزيمة بعد ان قتل منها عدد عظيم . ثم انعقد الصلح بين الطرفين بشرط ان القرطاجنيين يسلمون جميع جزائر البحر المتوسط مع سبيليا واسبانيا وجميع مراكبهم ما عدا عشرة منها الى الرومانيين وانهم لا يثيرون بعد ذلك حرباً الا باذن رومية وهكذا كانت نهاية الحرب الثانية التي دامت مدة ١٧ سنة

فاستمر الحال بين قرطاجنة ورومية في صلح وسلام من سنة ٢١٠ الى سنة ١٤٩ ق م حين شبت الحرب الثالثة بينهما . وكان السبب في ذلك هو ان ملك نوميديا التي هي الآن جزء من بلاد الجزائر كان بينه وبين رومية مخالفة وعهود فاختلف بعض الولايات التابعة لاحكام قرطاجنة فقام عليه القرطاجنيون وحاربوه فاستشاط الرومانيون غضباً من جرى ذلك برعهم ان هذا العمل من باب التعدي من اهل قرطاجنة على شروطهم المعقودة وصمموا على محاربتهم وخراب المدينة عن آخرها فجنّدوا الجنود وارملوها الى تلك الاطراف تحت قيادة القائد شيبو المذكور آنفاً فحاصر المدينة وافتتحها بعد حرب اربع سنين ثم احرقها بالنار وكان ذلك سنة ١٤٥ ق م

وسنة ١٢٠ ق م جلب اليها غراكس الروماني شعباً غريبة فرملوها وسكنوها ثم جدّد عمارها اوغسطس قيصر ولكن ليس في نفس مكانها الاول وهكذا مدة يسيرة بنت قرطاجنة الجديدة نمواً عظيماً حتى صارت من اشهر

مدن افريقية الرومانية ومن ثم استولى عليها الفنداليون سنة ٤٢٩ للمسيح
وسنة ٦٩٣ افتتحها العرب وهدموها عن آخرها وما زالت خراباً الى يومنا هذا
ولا يرى من بقاياها العظيمة غير رسوم دارسة واثار بالية وخرابها الآن يبعد
من مدينة تونس مسافة ثلاث ساعات الى الشمال الشرقي

الفصل الرابع

في بلاد الحبشة

هذه البلاد واقعة في الجهة الشرقية من قارة افريقية ومحدودة شمالاً ببلاد
النوبة وشرقاً بالبحر الاحمر وغرباً ببلاد الشلوك وجنوباً بسلسلة جبال متشعبة
من جبال القمر تخرج منها عدة انهر متفرعة من بحر النيل الازرق والابيض
تمر فيها وتسقي اراضيها . وعدد اهلها نحو اربعة ملايين دُعيت قديماً باسم ايثيوبيا
واشتملت ايضاً على بلاد النوبة مع باقي الولايات والاقاليم الواقعة في داخل
افريقية . واول من قصدها واستوطنها قوم من بلاد العرب لا يعرف احد
عنهم شيئاً خصوصاً لقدميتهم وتقادم عهدهم . وكان قسم كبير من هذه البلاد
يدعى سباً ومنه انت ملكة سبا على ما يُظن الى اورشليم لزيارة الملك سليمان
الحكيم . ويقال ايضاً ان الملك الذي تناوب كرسي ملكة الحبشة من نحو
ثلاثين سنة من هذا العهد هو من سلالة هذه الملكة المذكورة

وكانت اهل هذه البلاد في الايام السالفة على دين اليهود ثم دخلت اليها
الديانة المسيحية في اواسط القرن الرابع فنصرت الملكة كنداكة مع جميع رعاياها
ثم امتدت النصرانية الى بلاد النوبة في القرن السابع بواسطة القبط الذين
التجأوا الى هناك عند ما افتتح المسلمون ديار مصر . ولكن عند دخول الملك
الظاهر بيبرس اليها في القرن الثالث عشر قويت فيها شوكة المسلمين واتشرت

ديانتهم هناك . واما اهل الحبشة فلا يزالون مندينين بديانة مسيحية مزوجة
بعتائد وطفوس اخرى وبطريقهم يسمى من قبل بطريق القبط في مصر
وكانت العادة الجارية في هذه البلاد ان ينفوا اكابر امراءهم الى جبل يسمى
جشن وهذا الجبل في غابة الارتفاع وهو مشمت على هنة متساوية من جميع
الاطراف حتى انه لم يستطع الصعود عليه او النزول عنه الا بواسطة السحب
والتدلي بالحبال . وكان هؤلاء المنفيون يسكنون في اكواخ دنية على قمة هذا
الجبل ولا يباح لهم بالنزول الا في وقت مائهم وكان عموم الاهالي عند موت
الملك ينتخبون احد هؤلاء الامراء ليخلفه على الكرسي وفي الجهات العربية شمالي
بلاد النوبة جنس من العبيد يسمون الغلا يشبهون القروذ في صورة وجوهم
وهم طوائف متوحشة ليس لهم مساكن يأوون اليها بل يصرفون حياتهم في صيد
الافعال والنعام ويرقدون بين الاحراش كالبهائم وقد وصفهم بطليموس تحت
اسم اليفثوفاج وستروفيوثاج وها كلثان يونانيان معناها اكلو الافعال واكلو
النعام . فكانت الحبش في الازمنة القديمة تصيد هؤلاء القوم كما يصيد الناس
الوحوش الضارية ولكن من جرى حروب الحبش مع القبائل المحيطة بهم
ضعفت شوكتهم فكابدوا مشقات ومضرات كثيرة من جرعة مهاجمات الغلا
وغاراتهم عليهم

وكانت هذه البلاد في الاجيال المتوسطة مقسومة الى عدة ولايات كل
ولاية منها تحت سلطة شيخ او امير واستمرت على مثل ذلك الى ان صعد
على سرير ملكها الملك ثيودورس الذي كان على جانب عظيم من الشجاعة
والبطش فاضعها جميعها لسلطته المطلقة واكنها عصته اخيرا لظلمه وشدة جور
على الاهالي لانه كان يحلم احمالا ثغيلة لا طاقة لهم على حملها . وكان الجبل قد
اعى بصيرته وغير اطواره حتى انه لم يعد يقدر العواقب وانتهى به الحال الى
انه قبض على جماعة من مرسلي الانكليز وغيرهم من سياح الافرنج والقاهم تحت
الترسيم بدون ادنى جنابة واستمروا في اسره زمنا طويلا وقد خاطبته الحكومة

الانكليزية مراراً عديدة في اطلاق سبيل الأسرى المذكورين وهو يرفض ويمتنع حتى اضطرها الامر اخيراً الى ارسال جيش لمحاربتة تحت قيادة اللورد ناير مولف من اثني عشر الف مقاتل منهم اربعة الاف من العساكر الانكليزية الاوربية وثمانية الاف من عساكرها الهندية فوافقت هذه الجيوش سنة ١٨٦٨ الى مدينة مجدلا وهي كرسي ملكته فقاتلوه بقرب هذه المدينة وكسروا جيشه وفرقوه وخاف الملك ان يسي اسيراً فاخرج غدارة من حزامه واطلق الرصاص في فيه فوقع قتيلاً وهكذا انتهت حياته . وبعد ان دخل الانكليز مجدلا امر اللورد ناير بدفن الملك فدفن باحتفال عظيم ثم اتى بابي وكان عمره نحو ثمان سنين فعاملته معاملته حسنة تليق بعيال الملوك واصحبه معه الى انكلترا وبهذه الوساطة تخلص القوم من أسر الحبش . ومن اراد ان يعرف اكثر عن تاريخ الحبش وعوائدهم فعليه بمطالعة تاريخ الحبش تاليف الخواجه ثيوفيلوس وادمبر الالماني المطبوع في مطبعة المعارف في بيروت

الفصل الخامس

في بلاد المغرب

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد واخبار شعوبها الاقدمين

هذه البلاد يحدها شمالاً الاوقيانوس الانلاتيكي وبحر الروم شرقاً بلاد مصر وجنوباً الصحراء وغرباً الاوقيانوس الانلاتيكي . وهي تنقسم الآن الى اربع

ولابات اصلية . الاولى مراكش وقاعدتها مدينة مراكش ومن اشهر مدن هذه الولاية بعد مراكش فاس ومكناس ومقدور وظنجة وتطوان وسلا ونينا لالت ومكناسة . الثانية الجزائر ومن اشهر مدنها قسطنطينة ومسفرة وبونة او عنابة . الثالثة تونس وقاعدتها مدينة تونس ومن مدنها الاصلية يزرنة والقيروان وقابس وهي ثانية القيروان وبها منار مشهور . الرابعة طرابلس وهي تنقسم ايضا الى ثلاثة اقسام الاول طرابلس وقاعدته مدينة طرابلس ثم مزران وقاعدته مرزوق ثم بلاد برقة وقاعدتها درنة ومن مدنها المشهورة اوجيلة وسبوة . ولكل قسم من هذه الولايات اربع ولاه وحكام منفردون بسياسة احكامها . اما اصحاب مراكش فهم اعظم واشهر من باقي ارباب الولايات ولذلك يطلق عليهم لقب سلطان لاستقلالهم وامتيازهم على غيرهم واما ولاية طرابلس وتونس فيقال لهم باي وهو عندهم من اعظم الالقب بعد اسم السلطان واما صاحب الجزائر فكان يقال له داي عند الافرنج . وعدد سكان بلاد المغرب نحو ٢٠ مليون نسمة واكثرهم على دين الاسلام ومنهم كثير من اليهود وقليل من النصاري

وتختارق هذه البلاد من الشرق الى الغرب سلسلة جبال اطلس وتنقسمها الى قسمين متميزين فالارض الواقعة في الجهة الشمالية معتدلة الهواء ولا سيما الاراضي المروية بالمياه فانها في غاية الخصب واما الارض الواقعة تجاه الجنوب المساء بلاد الجريد فهي براري واسعة موحشة وليس بها الا سهول محرقه مشوية بالملح عرضة لحرارة الشمس تفتر بها الرياح والوحوش وعلى الخصوص الجراد الذي ياتيها ويغطي اراضيها واما جبال اطلس فهو مرتفع وفاصل بين فاس ومراكش وفي جوانبه غابات كثيرة مملوءة بالاشجار . وفي هذه البلاد جميع النباتات الموجودة في اوربا الجنوبية ولو كان اهلها يعتنون بها حتى الاعتناء لزادت عن ذلك وفيها كثير من شجر النخل والزيتون والتاريخ والموز والتين والتوت والبلوط والعنب وقصب الكسر وفيها انواع من الوحوش الضارية كالسباع

والضباع والافاعي المصرة والعقارب وغير ذلك من الاجناس وفيها كثير من
الخيل الحسان والهن المستظرفة ويقال ان بعض هذه الهن يمكنه ان يقطع في
يوم واحد ستة وثلاثين فرسخاً من الارض

ان معرفة الاقدمين كانت قليلة من جهة الاقاليم والاراضي الممتدة من
مصر الى جنوب المحيط وبلاد البربر فكانوا يعبرون عنها باسماء مختلفة ولم
يكنوا يطلقون اسم افريقية الا على بلاد مصر وما جاورها من الاقاليم لان
معرفتهم كانت محصورة في الاراضي الشمالية المعروفة الآن بالبلاد المغربية
ولذلك لم يطلقوا عليها اسم افريقية الا في زمن الدولة القرطاجنية وأُطلق هذا
الاسم اولاً على مملكة قرطاجنة فقط ثم اخذ يمتد يوماً بعد يوم حتى عم جميع
مالك القارة وصار لقباً لها

وقد اختلف المؤرخون والعلماء في اصل سكان هذه البلاد فزعم بعضهم
ان اصل المغاربة من اسيا ترحوا من بلادهم في الازمنة القديمة وقصدوا بلاد
افريقية وحلوا في شمالها وابتنوا لهم فيها منازل ومساكن وقال آخرون هم من
عرب اليمن وقيل من بني غسان وذهب بعضهم الى انهم اخلاط من بني كنعان
وعالمق . وكان السبب في رحيلهم الى تلك البلاد غزوات بعض الملوك
الذين افتتحو بلادهم وثقلوا عليهم فانهمزوا من امامهم وقصدوا الديار المصرية
وعند وصولهم اليها منعهم ملوكها عن التزول بجوارهم فرحلوا عنهم وانتشروا
في ساحات البلاد المغربية فتل بعضهم على السواحل البحرية ونزل البعض
في الجهات الداخلية وسكنوا في تلك الاماكن واستوطنوها وشيدوا فيها القرى
والمدن وتكونت منهم مع تنادي الزمان جملة قبائل وعشائر كصنهاجة ومغرا
وزناتة وغيرهم من البطون والانخاد . وما يدل على ان اصلهم من بني كنعان
وال فينيقية بعض كتابات قديمة منقوشة على بعض الاثار القديمة باللغة
الفينيقية منها هذه العبارة (نحن الذين انهزمنا من امام يشوع بن نون المقتصب)
وهذا يقرب من العقل لانه عند رحيل بني اسرائيل من مصر وقدمهم الى

ارض كنعان وافتتاحهم تلك البلاد لا بد ان كثيرين من سكانها رحلوا منها واستوطنوا في تلك الجهات التي نحن بصددناها وربما كان هناك بعض القبائل المتبررة القديمة العهد فاختلفوا بعض ببعض وتكونت منهم مع نمادي الازمان جملة عشائر وقبائل

وسميت بلادهم قديماً بلاد البربر قيل لها ذلك حسب زعم بعضهم لخشونة اصوات اهلها وبربرية لسانهم غير المفهومة ولكن ليس ذلك فقط بل الارحج لكونهم في مبدا امرهم كانوا في غاية الوحش والتبرير حتى انهم على ما قيل كانوا يأكلون لحوم الحيوانات نيئة ويتقننون من عشب الارض كباني الوحوش وكانوا يرفدون على بساط الارض ايضاً حلوا . ولعنهم مع تداول الايام اخذوا يقتلون من حالتهم الوحشية الى حالة احسن واصح وهكذا بانضمامهم ضمن مدائن وقرى خرجوا شيئاً فشيئاً عن حالتهم المتبررة وبالتدريج اربطوا مع باقي الشعوب بروابط اسرعت تمدنهم على نوع ما وعما قليل شيدوا المدن العظيمة وابتنوا لهم سفناً وصاروا اصحاب سطوة واقدار واستمرت البلاد تحت نسلهم عدة قرون وكانت مدينة قرطاجنة من اعظم واشهر مدائنهم ولشهرها وسطونها قد افرزنا لها فصلاً مختصاً باخبارها ووقائعها

وما زالت البلاد في ايديهم وتحت تصرف احكامهم الى ان افتتحتها الرومانيون بعد حروب ووقائع كثيرة قد ذكرنا اشهرها في اخبار قرطاجنة . وكان كلما تقدم الرومانيون في فتح البلاد ترحل القبائل من امامهم وتنتجى الى الجبال والاماكن الوعرة بحيث لا يقدر الرومانيون ان يتوصلوا اليهم وهي القبائل المعروفة الآن عند الافرنج بالنوميديّة واما باقي السواحل كمرآش والجزائر وغيرها فكان يطلق عليها اسم موريثانيا وعلى سكانها اسم مور فخصعوا للرومانيين واخضعوا معهم واعترفوا ديارهم وسنة ١٧ للميلاد قام احد البرابرة المدعو تاكفراس واستمال قلوب الناس اليه وجعل يحرضهم على العصيان وتخليص البلاد من نير السّلطة الرومانية فاجابه الى ذلك اكثر الاهالي

وحاربوا الرومانيين واستمرت الحروب بينهم نحو سبع سنين ولكنهم لم ينجحوا
 وسنة ٤٢٧ للميلاد نشر بونيفاس الوالي الروماني علم العصيان ضد
 العاصمة وخرج عن طاعة دولته وتعلت اماله بالاستقلال على البلاد المغربية
 فارسل الى الفنداليين الذين كانوا يومئذ سكان الاندلس في اسبانيا يلتمس
 منهم المساعدة والامداد على بلوغ غايته فاجابه ملكهم جنساريك الى ذلك وقصد
 افريقية بثمانين الف مقاتل وعند وصوله الى تلك السواحل اخذ يفتح المدن
 والاقاليم وبقيتها الى احكامه فلما راي بونيفاس ان القوم الذين كان يامل
 مساعدتهم قد صاروا له من جملة الاعداء والاصنام ندم على ما فعل واضطر
 ان يدافع عن نفسه خوفاً من الغلبة ولكنه بعد جملة وقائع انكسر وتفرق جيشه
 وتبدد واستولى الفنداليون على تلك البلاد واستمرت تحت قبضة ايديهم الى
 زمن الامبراطور جوستنيان حينما ارسل جيشاً عروماً سنة ٥٣٥ للميلاد تحت
 رياسة القائد بليساريوس وافتتحها ومن ذلك الوقت انقضت الامة الفندالية
 ولم يعد لها ذكر

الباب الثاني

في دخول المسلمين الى بلاد الغرب وافتتاحهم مدنها واقاليمها
 وباقى ولاياتها

اما قوة الدولة الرومانية بعد انقسامها الى سلطتين شرقية وغربية فاخذت
 تضعف شيئاً فشيئاً بعد تلك السطوة والهيبة العظيمة اذ لا يخفى ان كل مملكة
 انقسمت على ذاتها لا تثبت ولا تدوم . وكان العرب يومئذ في نجاح عظيم فانهم
 بعد ما فتحوا سورية ومصر وجهوا افكارهم نحو هذه البلاد فقصدوها عمرو بن

العاص والي مصر بجيش جرار سنة ٦٤٤ فقطع بلاد النوبة وفتح برقة وما جاورها من الاقاليم وكان قد حدث في غيايه ثورة في الاسكندرية الزمته بالرجوع الى الديار المصرية لتمهيد الفلاقل والفتن في تلك الاثناء توفي عمر بن الخطاب وتولى مسند الخلافة بعده عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد فزحف هذا الوالي الى بلاد المغرب وجارب القائد غريغوار رئيس جيش الروم فكسره ومزق شمل عسكره وفتح تونس وطرابلس وكثيراً من المدن والبلدان ثم تقدم نحو قرطاجنة وارسل الى اهليها يقول لهم انه مستعد ان يمحول عنهم ويترك لهم باقي البلاد التي فتحها بشرط ان يدفعوا له مليونين ونصفاً من الدنانير فاجابوا طلبه ودفعوا له المال وهكذا انتفى راجعاً الى مصر تاركاً جميع فتوحاته

فلما بلغ هذا الخبر حكومة القسطة اينية استعظمت ذلك المبلغ الذي دفعه رعاياها في الغرب للمسلمين فخذت على عيالها واتهمتهم بالخيانة وصممت على الاتقام منهم سنة ٦٦٢ للميلاد ارسل الامبراطور قسطنطس الثاني الى والي المغرب يطلب منه مبلغاً على قدر المبلغ الذي دفعه الاهالي للمسلمين فلم يجبه الوالي الى هذا الطلب واتخذ سراً مع معاوية بن ابي سفيان راس الدولة الاموية على فتح البلاد واستخلاصها من ايدي الرومانيين وانه يكون مساعداً له في الباطن فاغتم معاوية هذه الفرصة وارسل جيشاً تحت قيادة معاوية بن خديجة وعبد الله بن الزبير لفتح بلاد المغرب فتحها نجاحاً عظيماً وكسرا للجيوش الرومانية . سنة ٦٦٦ ارسل جيشاً اخر لنجدة الجيش الاول ثم ارسل في سنة ٦٧٠ نجدة اخرى تحت راية الامير عقبة بن نافع ففتح هذا الامير كل البلاد الشمالية من الشرق الى الغرب الاقصى وافتتح كل بلدة مسكونة في تلك الجهة ومهد باقي الاقطار سنة ٦٧٥ بني في حرش غاص بالوحوش الكاسرة مدينة افيروان فصارت من ذلك الوقت مقراً ومركزاً للولاية الاسلام على البلاد المغربية واضمت داراً للعلوم ومقصداً للطلاب

وفي اواخر القرن السابع نهض جمهور غفير من البربر وانضم بعضهم الى بعض طمعا بالاستقلال واسترجاع ملكهم فخلعوا طاعة المسلمين وجأهروهم بالعصيان وكانت تقودهم امرأة موصوفة بالشجاعة والاقدار يقال لها دمية فكسرت جيش المسلمين في حلة مواقع وطردتهم من جميع البلاد فالتجأوا الى بلاد برقة وبقوا هناك الى ان وافتهم نجدة قوية فحملوا بها وصدمو جنود دمية المذكورة فاتصروا عليها وكسروها واسترجعوا البلاد التي كانت قد اخذت منهم

ثم في سنة ٧٤٦ للميلاد حدثت قلاقل اخرى في افريقية وكان سببها ابوسعدي البكري خليفة سيد قبيلة زناتة فانه اخذ يحرض اهالي المغرب على حرب العرب املاً بتأسيس سلطنة مستقلة في تلك البلاد ولكنه لم ينجح في مشروعه واستمرت البلاد بايدي العرب زمناً طويلاً الى ان سقطت سلطنة الخلافة في الغرب والشرق فكانت الولاة على نوع من الاستقلال ولم يكن للخلفاء من احكام الغرب يومئذ الا مجرد الاسم فقط وهكذا كان الحال ايضا في زمن الخلفاء الفاطميين فانه تداول احكام هذه البلاد في ايامهم كثير من الولاة والاحكام ما لا يسعنا ضيق المقام استيفاء اخبارهم

هذا وفي زمن ولاية المعز بن باديس عليها زحف اليها عرب بني هلال من بلاد نجد سنة ١٠٥١ بمجموع كالجراد المنتشر تحت راية اميرهم حسن بن سرحان وقائدي جيوشهم ذياب بن غانم وسلامة بن رزق المشهور بابي زيد وكان من اعظم فرسانهم فاجتازوا النيل ونزلوا بلاد برقة فافتحوا امصارها واستباحوا املاكها ونقارعو على ولاياتها ثم تقدموا بمجموعهم لافتتاح باقي البلاد فاستعد المعز المذكور لمصادمتهم ومقارعتهم ونهض بمجموع صنهاجة وزناتة مع جمهور غفير من طوائف العرب المتوطنة في تلك البلاد ولما التقى الفريقان افترقت جموع العرب عن الجيوش الاسلامية والطوائف المغربية واتحدت مع الهلاليين نظراً للعصية القديمة وكانت الدائرة على المعز فانهزم شر هزيمة وفر

بنفسه وأهل بيته وقصد الشطوط البحرية والتجأ هناك ونهبت العرب أمواله
وذخائره وقتلوا من جيشه عدداً كثيراً

ولما انهزم المعز من أمام وجه العرب جهز صاحب تلمسان جيشاً عرمرماً
لقتالهم فكانت بينهم وبينه حروب كثيرة إلى أن انتصروا عليه وقتلوه بنواحي
الزاب وهي مقاطعة مشهورة في تلك الأطراف ثم تغلبوا على باقي الصواحي وأزعموا
سكانها وأعطوا على المنازل والمدن والقرى فنهبوها وتركوها قاعاً صفصفاً
وزاحوا الأهالي في بلادهم وانقسموا بينهم الولايات والولايات من تونس إلى
فاس ومكناس في مراكش وباقي بلاد الصحراء وبرقة واستمرت الرياسة في
أيديهم زمناً طويلاً

هذا وبينما كانت هذه الفلاقل والبلابل جارية في المغرب ظهر في أوائل
القرن السادس عشر شاب يقال له خير الدين وهو المعروف عند الأفرنج باسم
بربوس وكان هذا الشاب ابن رجل فاخوري من جزيرة صقلية المسماة عند
الأتراك مِديّ فنشأ على حرفة القرصان من صغره وكان قد شارك أخاه أروج
في هذا العمل فاغنيا مع تهاديه الأيام من أموال النهب والسلب حتى صار
لها في وقت قريب عمارة بحرية وكانا قد صمما أن يتخذا لها مركزاً على بعض
شطوط إفريقية نظراً لحسن موافيقها . وكان يومئذ ملك الجزائر يقال له سالم بن
تومي فاجتمع بأروج المذكور وتفاوض معه بهذا الشأن فاجابه إلى طلبه . وكان
للاسيابول حصن عظيم في تلك النواحي حاول ملك الجزائر مراراً عديدة على
افتتاحه فلم يتمكن من ذلك فطلب من أروج المساعدة والامداد على افتتاح
هذا الحصن فاجابه إلى ذلك ولكنه عوض أن يساعده أخذ يستميل إليه قلوب
الأهالي والأعيان وفي أيام قليلة اشتهر أمره وصار ذا كلمة نافذة فاستولى على
الجزائر وقتل ملكها ثم افتتح تلمسان وامتدت أحكامه إلى أواسط إفريقية وكانت
عمارة البحرية قد اقلقت سواحل إسبانيا وإيطاليا في مغازيها فقام عليه في
غضون ذلك كوماريس حاكم أوران بجيش عظيم وانتصر عليه في عدة مواقع

واخيراً حصرة في تلسان وقتله

فاستولى على المملكة بعده اخوه خير الدين المشهور باسم بربروس واخذ بنار
اخي ثم رتب احوال المملكة ونظم امورها واذ كان يخاف من هجمات الاسبانيولين
وغاراتهم على بلاد استعان بالسلطان سليمان الثاني ودخل تحت ظل حمايته
فامده بالجيش العثمانية . ثم سلكه رياسة العارة البحرية وجعله قبطان باشي على
مراكبه الحربية وكان بربروس قد اضر ان يفتح جميع بلاد الغرب ويندمها
خدمة للسلطان في مقابلة جميله وعند ما شرع في هذا الامر اضطربت اشراف
ايطاليا من سطوته واتحدوا مع شرككان امبراطور اسبانيا على حربه فحاربه
شرككان وقهره وبدد جيشه وسلم زمام البلاد للوكها الاصليين

وسنة ١٥٧٤ للميلاد جهز السلطان سليم الاول جيشاً عسكراً وارسله مع
عمارة بحرية تحت قيادة سنان باشا لافتح تونس وباقي بلاد المغرب فافتتحها
من الاسبانيولين ثانية بعد حروب ووقائع هائلة ومن ذلك اليوم صارت جميع
البلاد ما عدا مملكة مراكش خاضعة للدولة العثمانية . وكانت الجزائر قد استقلت
نوعاً سنة ١٥٨٥ واستمرت كذلك الى سنة ١٨٣٠ حين حاربها دولة فرنسا
بسبب تعدي اهليها على السفن الفرنسية وعلى حقوق سننها ورعاياها المسلمين
فيها فافتتحت في اول الامر جانباً منها وكان اعظم مقاومتها في هذه الحروب
الشيخ محي الدين الحسيني الذي طلب منه اهالي الجزائر جيلة مرار ان يملك عليهم
وكان ياتي الملك ترهناً فعند ما ضايقهم الفرنسيون قصدوا اجباره على ان
يتسلطن عليهم اما هو فبقي مصرّاً على عدم قبوله فتهددوه بالقتل ان لم يقبل فما
قبل بل اعطاهم ابنة عبد القادر و اشار عليهم ان يجعلوه سلطانهم فبايعوا عبد
القادر المذكور في الملك وهو من مشاهير هذا العصر في الشجاعة وعلو الهمة
فقاوم الفرنسيين اشد مقاومة وكانت بينه وبينهم مواقع وحروب كلية لا يسعنا
ضيق المقام التعرض لذكرها ثم سلم اخيراً في ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٤٧
للميلاد بعد ان حاربهم مدة ست عشرة سنة . ثم ارسلوه الى فرنسا وبقي هناك

الى سنة ١٨٥٢ حين اعتقه نابوليون الثالث من الاعتقال وعين له مرتباً سنوياً يدفع اليه من خزينة الدولة فاتي وسكن دمشق ولم يزل قاطناً بها الى ان توفاه الله

واما بلاد تونس فكانت كالذيوار المصرية على نوع من الاستقلال تحت مال معلوم تدفعه سنوياً الى الدولة العثمانية الى ان كانت سنة ١٨٨١ ادخلتها فرانساً تحت حمايتها واشهرت سيادتها عليها عنوةً واقتداراً غير انها اقامت سياستها في ايدي اهاليها وواليها الحالي يقال له سيدي علي باشا اخا محمد صادق باشا الوالي السابق ويلقب بالباي وهو مشهور بحسن الادارة وعلو الهمة

وعدد اهالي هذه البلاد يبلغ ١٠٠ ٠٠٠ ٢ نسمة وعاصمتها مدينة تونس عدد سكانها ١٢٥ ألفاً اكثرهم مسلمون وليس لهذه البلاد شهرة عظيمة في التجارة واكثر وارداتها الاقمشة الانكليزية وقد بلغت قيمتها سنة ١٨٨٢ نحو ٤٤ مليون قرشاً واما صادراتها فنحو ١٩ مليوناً تقتصر في بعض اصناف من محصولاتها كزيت الزيتون والاسفنج والبلح والبنول والسمك المملح والصوف والطربوش اما البلاد الوحيدة التي حفظت استقلاليتها من سنة ١٥٥٩ الى هذه الايام فهي مراكش وهي من اشهر واعظم الاقسام المتقدم ذكرها واستقلالها استقلال حقيقي دون غيرها من ممالك بلاد المغرب وسلطانها الحالي يقال له السيد محمد بن عبد الرحمن وهو من افاضل الناس موصوف بالوداعة والمزايا الحميدة

الفصل السادس

في جزيرة مداكسكر

لا يخفى ان في قارة افريقية عدة جزائر متفرقة منها واقعة على شرفها ومنها على غربها اما الجزائر الواقعة على الجهة الشرقية فمنها جزائر كومورو وسكانها نحو ٢٠ الف نسمة اكثرهم من العرب والمسلمين . وجزيرة بوربون التابعة احكام فرنسا وعدد اهلها ٦٥ الف نفس وجزيرة مورتوس ولفنتينا التي هي تحت نسلط الانكليز وجزيرة سومطرا او غيرها . واما الجزائر الواقعة على غربي القارة فمنها جزيرة مدايرا وجزر الراس الاخضر وهذه جميعها تحت حكم البرتغال . ثم جزيرة القديسة هيلانة التي بيد الانكليز وجزائر كناري او الخالدات المخصصة باسبانيا وغيرها ولكن اذ كانت جزيرة مداكسكر اعظمها جميعا في الاتساع وعدد الاهالي راينا ان نذكر شيئا عنها قبل الانتقال من هذه القارة ان جزيرة مداكسكر واقعة في بحر الهند للجهة الجنوبية الشرقية من قارة افريقية وتحسب قسما لقربها اليها مع انه يفصلها عنها خليج موزامبيك الذي مضيق عرضه ٢٠٠ ميل . ومساحة هذه الجزيرة فسجية فان طولها من الشمال الى الجنوب ٩٥٠ ميلا ومعدل عرضها ٢٥٠ ميلا على انه في بعض الاماكن يبلغ ٢٥٠ ميلا فعلى ذلك تعادل مساحتها مساحة ملكة فرنسا تقريبا اما عدد سكانها على ما ذكره الجغرافيون فخمسة ملايين وهم شعوب وقبائل مختلفة متفرقون بين جبالها وسهولها وديانتهم وثنية اذ لم يوجد بينهم من يهدم ويرشدهم لمعرفة الخالق . واما الآن فقد دخلت الديانة المسيحية الى هذه الجزيرة دخولا عجيبا بواسطة مرسلين انكليز ولاتينيين وغيرهم واخذت تعاليم الانجيل

تنشر بينهم وتمتد حتى ان عدد المسيحيين الان يبلغ نحو ٢٠٠ الف نفس من
جملتهم الملكة الحالية ووزراؤها وذوو الرتب والمناصب . وهذا التغيير العجيب
تم في مدة خمسين سنة فقط . والمأمول انه في وقت قريب ثلاثي الديانة
الوثنية من هذه الجزيرة وتنشر معرفة الخلاص بين جميع شعوبها

اما هواء هذه الجزيرة فعلى الاغلب حار وفي بعض الاماكن تشتد الحرارة
الى درجة غير محتملة بحيث تكون قتالة للاوربيين القادمين من بلاد باردة
واما فصولها فتختلف عن باقي الفصول المألوفة للناس اذ لا يكون فيها سوى
فصلين فقط وهما الشتاء والصيف

فصيفها يتبدى من شهر تشرين الثاني وينتهي في نيسان والشتاء من ايار
الى نهاية تشرين الاول . واما تربتها فجيده الى الدرجة القصوى وتاتي بتأجج
عظيمة اخصها الارز وهو المعول عليه في مأكولات الاهالي ويرسل منه جانب
الى الخارج برسم التجارة ولو كان لاهلها زيادة خيرة ومعرفة في امر الزراعة لكانت
البلاد في فجاج اكثر ما هي عليه الان . ومن مستغربات اشجار هذه الجزيرة شجرة
يقال لها شجرة السباح وهي اشبه بشجرة الموز ومن خواصها انه يوجد في اسفل كل
غصن منها ورقة ملتفة على شكل الكيس تنعاب فيها مياه المطر فيستعين بها
المسافرون في اسفارهم . قال بعض السياح كنت مسافراً ذات يوم في مداكسكر
فوصلت الى غابة منسعة فيها كثير من هذه الاشجار واذ كنت عطشاً انا اخذ
احد غلاني رحماً وطعن به غصن شجرة منها فخرج ماء عذب بارد مقدار ١٥٠
درهماً فشربت وارويت ظمائي وسرت شاكرًا

وفي هذه الجزيرة بعض المعادن كالححاس والحديد والرصاص والتصدير
والزئبق وغير ذلك ولكن لم يستخرج منها الى الان غير الحديد فقط . وبها انهر
عديدة وجبال شامخة ارتفاع بعضها نحو ٩٠٠٠ ذراع . ومن اعظم مدنها مدينة
اتاناناريقو وهي عاصمة الملكة ومركزسي الحكومة . وعدد سكانها نحو ٨٠ الف
نسمة . ومدينة ناماناف وهي اسكلة بحرية كثيرة التجارة واهلها نحو ٢٠٠٠ نفس

اما شعوب هذه الجزيرة فيقسمون الى قسمين كبيرين . الاول يقال لهم شعوب السفولان وهم يشبهون العبيد في اللون والعوائد يسكنون غربي جبال الجزيرة . والثاني شعوب المالكاز او المالياز ومنها قبيلة المواز التي سادت على باقي قبائل الجزيرة سطوة وشوكة والتي منها العائلة الملكية الحاضرة . ولذلك يطلق على حكومة مداكسكر حكومة المالكاز وعلى شعب المالكاز . والمظنون ان هذا الجنس خرج في الاصل من شبه جزيرة ملقا او ملايا في الهند الشرقية وانتشروا في عدة اماكن اخصها جزائر المحيط فان اغلب الاهالي منهم . ويمتاز هذا الجنس بشدة اسمرار البشرة وبطول الشعر وتدليه وسواده وبضخامة الانف وتفرطحه وبكبر الاعين ولعائنها

اما عوائد اهالي مداكسكر فقيصة ويكفيها ان نقول انهم عبدة اصنام فليست تنجح الفارسي ما وراء ذلك من الصفات . ومن عوائدهم الوحشية عمليّة احيائية يسونها طنجينا اي عمليّة كشف السحر استعمالوها في القضايا الواقعة فيها التشبه على بعض الناس من جهة كونهم يستعملون السحر او لم يداخله في فتنه سياسية او ميل نحو النصرانية . وكان اعتقاد العامة في صدق هذه العمليّة بهذا المقدار قوياً حتى ان الابرياء المتهمين في الشكايات المذكورة فضلاً عن كونهم يخضعون ويسلمون بصدقة تلك العمليّة كانوا يطلبون ان تجري عليهم برغبة شديدة لتبرير انفسهم امام الشعب مع ان الاكثرين منهم كانوا يمتنون من مخاطرهما وتموت براءتهم معهم . اما كيفية تلك العمليّة فانهم كانوا ياتون بالشخص المتهم امام رئيس الطنجينا (ويقال له الالاعن) فيضع في فيه ثلاث قطع من جلد دجاجة ليلعها بدون مضغ ثم يطعمه قليلاً من الارز المقلل وبعد ذلك ياتي بجوزة من السم فينحت منها قليلاً في عصير موزة ويسقيها للنهم ثم يضع يده على راسه ويتدنى بهذه الصلاة قائلاً اسمعي اسمعي واصغي جيداً يا ايها الراياناماكو^(١) انت بيضة مستديرة من عمل الله انت التي تنظرين وليس لك

اعين انت التي تسمعين وليس لك اذان انت التي تحيين وليس لك فم اسمعي اذا واصفي جيداً يا ايها الرايمانامانكو . ثم يطيل الكلام في تلك الصلاة التي لم تنف الأ على ما ذكرناه منها وغاية قصدهم بهذه الاستغاثه للنجينا ان تخلص احوال المنهم ونظير ذنبه فان كان برياً نجعله يستفرغ ما ابتلعه من جلد الدجاجة صحيحاً كما كان ولكن اذا كانت المعدة قد هضمها ولم يخرج القيء شيئاً منها يحسبون ذلك دليلاً واضحاً على ذنب المنهم فيبتدئون حشد بضربه ضرباً بالياً حتى يموت ثم يدفونه في حالة الذل والاهانة وفوق كل ذلك يضبطون جميع املاكهم ويغرمون اقاربهم . وكان عدد الذين يموتون بهذه الميته الشديعة ثلاثة الاف شخص كل سنة ولكن هذه العادة قد بطلت الآن بواسطة دخول الديانة المسيحية

اما تاريخ هذه الجزيرة فمجهول ولا يعلم كيف او اي متي سكنها الناس ومع انه كان للعرب والمغاربة صلة قديمة معها في التجارة لم يسمع عنها شيء الا في الجيل الثالث عشر من ماركوبولو الفينسياني الذي اشتهر في سياحته الطويلة في اسيا وافريقية فانه يسميها ماغاستر مع انه لم يدخلها . واول من زار هذه البلاد لورنس الميدا حاكم داربورتوغار في الهند فانه مر عليها وهي متوجه الى محل ماموريتيه سنة ١٦٠٥ . وقد حاول البورتوغاليون مراراً عديدة اخضاع هذه الجزيرة واستلاكها فاستولوا على بعض سواحلها ولكنهم اخيراً طردوا منها

وكان الفرنسيون قد اجتهدوا ان يضموها الى املاكهم في افريقية واستعملوا حيلة وسائط الى ذلك فلم تجدهم نفعاً لانهم حصلوا على مقاومات شديدة من الاهالي ومن الانكليز ايضاً الذين مع انهم جيران في اوربا لم يسروا بقربهم في افريقية واسيا . ففي سنة ١٦٤ قدم الى تلك الجزيرة جماعة من الفرنسيين واستوطنوا في بعض اطرافها . وسنة ١٧٧٤ ارسلت فرانسوا الكونت بنيانوسكي ليقم هناك بعض مراكز حربية فذهب في جيش عديد وعند وصوله الى تلك

الجهات اظهر العصاة على الحكومة طمعا بالاستقلال فبعثت دولة فرانس
فجاريته وقتلته . وسنة ١٨١٥ تملك الفرنسيون بعض مراكز على الشواطئ
البحرية لكنهم التزموا اخيرا ان يتركوها بسبب قيام الاهالي عليهم . وفي اثناء
ذلك وقع الاتفاق بين دولتي انكلترا وفرنسا ان تعزلا كلتاها عن استهلاك
شيء من اراضي الجزيرة وان يتركاهما لاهلها

وسنة ١٨٥٥ استحصل رجل فرنساوي يدعى لامبر رخصة من الملكة
وانا فالونا الاولى لاقامة محل للسكر شراكة بينه وبينها . فبسبب هذه الشراكة
صار له وسيلة للتردد على العاصمة والتعرف بوزراء الحكومة . ثم اتصل بعد
ذلك بمعرفة الامير راكوتو ولي العهد فكان يشرح له عن التجارة ووسائل الغنى
الناجمين من اصلاح الزراعة وعمسين احوال البلاد فانقضا ذات يوم سرا
على اقامة شراكة لاجل هذه الغاية ووعدا لامبر راكوتو بانة عند جلوسه على سرير
الملك يعطي لامبر اراضي كثيرة للزرع وحفر المعادن وغير ذلك من الامتيازات
التي من شأنها ان تجلب المكاسب وتصلح امور البلاد . فلما تولى الامير راكوتو
زمام الملكة لقب راداما الثاني والتحق به جملة من الاجانب واحاط به اصحابه
الاقدمون ممن كانت تحملوه عشرينهم فانعكف على الملاهي واللذات واهمل
عهوده مع لامبر فكان يطالبه ويلازمه ويشدد عليه في ذلك حتي التزم اخيرا
ان يجري ما وقع عليه الاتفاق فاصدر اوامره باعطاء لامبر قسما كبيرا من
الاراضي واذن له باستخراج المعادن وضرب النقود وعمل الطرقات والزرع
وغير ذلك من الامور التي اجراها على غير رضى وزرائه واركان دولته

وفي السنة الثانية من حكمه حدثت ثورة في البلاد قتل بها هذا الملك
وخلفته الملكة رازوهرينا وعند جلوسها توقفت الحكومة عن اجراء اوامر الملك
السابق واعلنت للفرنساويين بانها لا تقبل ولا تسلم بتلك الموافقة السرية
التي جرت بغير معرفة روسائها فتشكى الفرنسيون من تلك المعاملة واقاموا
الحجة على حكومة مداكسكو وولجت فرانس الكومودور دوپري ان يقصد

الجزيرة ويسعى في تحصيل مطالب رعاياها فذهب اليها بثلاث قطع حرية
واخذ ينهدد الحكومة ولكنه لم يستطع ان يجري بالفعل تلك التهديدات فظراً
لما يعمره من الموافقة الرائعة بين فرansa وانكلترا من جهة اعتراضها عن المداخلة
والاغصاب . ولكن اذ كان لابد من صرف القضية على وجه من الوجوه
ارسلت حكومة مداكسكر سفراء الى فرansa وانكلترا في اواخر سنة ١٨٦٣
وهناك انفضت هذه المسئلة بالزام الحكومة ان تدفع للفرنساوين مليون فرنك
مقابلة لاسقاط دعواهم

ثم خلف هذه الملكة المذكورة الملكة رانا فالونا الثانية في اول نيسان سنة
١٨٦٨ وتزوجت في ٢ ايلول من السنة المذكورة وتزوجت بالصدر الاعظم
في ١٩ شباط سنة ١٨٦٩ وتعدت مع زوجها في ٢١ الشهر المذكور
من قسيس وطني انجلي يسي اندرياميلو وفي تلك السنة
امرت الحكومة بانثلاف الاصنام وهياكلها من
اقليم اميرينا الذي هو اعظم اقليم
في تلك البلاد ومقر
اقامة الحكومة